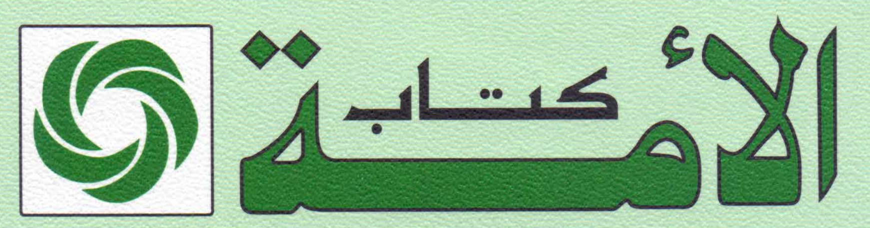


سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

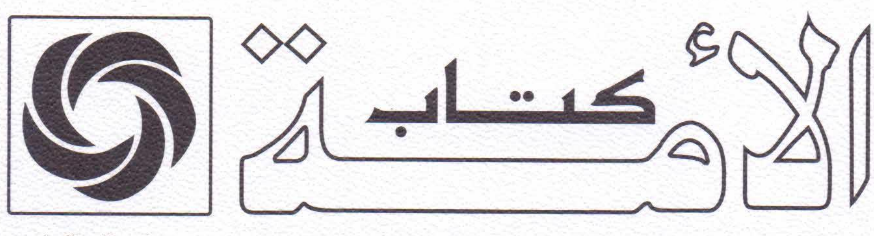
العدد: ١٥٧ رمضان ١٤٣٤هـ السنة الثالثة والثلاثون

أخلاقيات التعامل الأسري في السيرة النبوية

د. عبد الله بن ناصر السدحان

عبد الله بن ناصر بن عبد الله السدحان

* من مواليد المملكة العربية السعودية.
* يحمل درجة دكتوراه الفلسفة في علم الاجتماع.
* عضو مجلس إدارة الجمعية السعودية لعلم الاجتماع والخدمة الاجتماعية.
* المشرف العلمي على مشروع أدلة الإرشاد الأسري.
* عضو لجنة التحكيم في جائزة الملك خالد للمشروعات الاجتماعية.
* له العديد من البحوث والمؤلفات وأوراق العمل.



سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

ص . ب : ٨٩٣ الدوحة – قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. يأتي في شهر رمضان المبارك، شهر التدريب على فعل الفضائل ومكارم الأخلاق وتحقيق التقوى، في هذه المرحلة المهمة من التاريخ الحضاري الإنساني، حيث يقف العالم اليوم أمام المنعطفات الكبرى والنماذج المتباينة والتداخل العالمي بين كل العروق والأجناس والأديان والحضارات، بكل ما يتولد عن ذلك من مشكلات وأزمات وقضايا أخلاقية ودواع للجوء إلى الفكر الدفاعي، والدخول في المواجهات المفروضة والمفترضة، وفرض وإكراه حضارة الغالب المهيمنة، بكل أزماتها وفسادها المالي والسياسي والاجتماعي وطابعها الإباحي، حيث لم تعد تقتصر تلك التصرفات الشاذة على الشأن الشخصي بل امتدت إلى مؤسسات الحكم والإدارة والمال والمؤسسات الدينية، والافتتان بتقدم (الآخر)، والعجز عن التفريق بين الصورة والحقيقة، حيث بدأت القيم الأخلاقية الإسلامية تغيب عن إنساننا ومجتمعاتنا شيئاً فشيئاً، ونسقط ضحايا وفرائس لثقافة وعادات الآخرين، دون القدرة على محاكاة تقدمهم العلمي والتقني.

جاء هذا الكتاب ليعيد فتح ملف القيم الأخلاقية، ويجدد الذاكرة التاريخية والمعرفية تجاهها، ويقدم أنموذج الاقتداء الخالد في كل المجالات والأنشطة، ويعرض للأسس التي تقوم عليها مكارم الأخلاق، ويضع خارطة العمل المطلوب لممارسة هذه الأخلاق في مجالات العلاقات والأنشطة الإنسانية، ويبين دور الأخلاق في بناء الحياة الطيبة السعيدة، ويؤكد أن الأخلاق هي إكسير الحياة السعيدة الطيبة والحاضن الأساس للحضارة الإسلامية، بكل شُعبها، وأن دور القيم الدينية والأخلاقية هو صناعة الدنيا النظيفة الطاهرة، فالدين للدنيا، وليس للهروب والانسحاب منها وتنفير الآخرين من تعاطيها.

موقعنا على الإنترنت: www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www. Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني : E. Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

أخلاقيات التعامل الأسري
في السيرة النبوية

د. عبد الله بن ناصر السدحان

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٣٤هـ

تموز (يوليو) - آب (أغسطس) ٢٠١٣م

عبد الله بن ناصر السدحان.

أخلاقيات التعامل الأسري في السيرة النبوية.

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٣م.

١٨٨ص، ٢٠سم - (كتاب الأمة، ١٥٧)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ١٥١ / ٢٠١٣

الرقم الدولي (ردمك): ٣ / ٦٠ / ٩٢

أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يقول الرسول ﷺ:

«إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ»

(أخرجه الإمام أحمد)

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي وصف المَثَل الأعلى ومحل الأسوة والقدوة للإنسان والأمة والدولة في الرسالة الإنسانية الخاتمة والخالدة بصاحب الخلق العظيم، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤)، ليصبح نزوع الناس وسلوكهم نحو مدارج الكمال والاكتمال متجهاً صوب هذا الأنموذج المتمثل لهذه القيم الأخلاقية، بكل أبعادها ومجالاتها وتطبيقاتها، الذي شهد الله له، والله خير الشاهدين، بأنه على خلق عظيم، كما شهد له مجتمعه أيضاً بأنه الصادق الأمين؛ ولعل تلك الحقيقة تعتبر من أخص خصائص القادة والزعماء والمصلحين، وقبل ذلك وبعده الأنبياء، قادة الأمة إلى الخير ومرشديها إلى الهدى والصلاح.

والصلاة والسلام على صاحب الخلق العظيم، نبي الرحمة، الذي تجلى خلقه في سيرته في المجالات جميعاً، وفي مقدمتها علاقاته ورحمته بأمته، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ...﴾ (آل عمران:١٥٩)، الذي بُعث مكملاً للدين الإنساني ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ (المائدة:٣)، بعد هذه الرحلة الطويلة من مسيرة النبوة، ومتمماً لبناء الأخلاق: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ**» (أخرجه الإمام أحمد)، فكان الإسلام بتلك النبوة جماع كمال الرسالات، وكانت أخلاق النبي ﷺ جماع البناء الخلقي النبوي التاريخي وتمامه.

وبعد:

فهذا «**كتاب الأمة**» السابع والخمسون بعد المائة: «أخلاقيات التعامل الأسري في السيرة النبوية»، للدكتور عبد الله بن ناصر بن عبد الله السدحان، في سلسلة «**كتاب الأمة**»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، في محاولاتها المستمرة لاسترداد مواصفات «صبغة الله»: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ (البقرة:١٣٨)،وإعادة صياغة الشخصية المسلمة بكل مكوناتها ومقوماتها، بعد أن كاد يطول عليها الأمد فوقعت في تقليد الأمم الأخرى، في الأخلاق والعادات واللباس والطعام والزينة، وعَجِزت عن تقليدها في العلم والبحث والمعرفة والاختراع والإبداع، لقد كاد يطول على الأمة أمد الجنوح فأصيبت بشيء من غلظة القلب والانكسارات الأخلاقية.

وقد تكون الإشكالية متمثلة في تكريس الفهم المعوج الوافد لمسألة الأخلاق، وتغييب دورها كحاضن اجتماعي ومولد للفاعلية ومحرض للإتقان

والإبداع وصناعة الحياة، حيث تحولت القيم والمفاهيم الأخلاقية، بعد هـذا العبث والتضليل الثقافي المديد، لتعني - فيما تعني- الانسحاب من الحياة، والقعود عن الفعل الاجتماعي باسم الانقطاع للعبادة، والقعود عن الكسب باسم الزهد في الدنيا، وتعطيل العقل بحجة الانحياز للوحي، والإيمان السلبي المعطّل، والتواكل بحجة التسليم بالقدر، وانتظار السنن الخارقة، والاقتصار على رواية الخوارق والأساطير، وادعاء القدرات الخارقة، والعزوف عن الحياة وإصلاحها، والانتهاء إلى الكهوف والزوايا، والانطواء على (الذات)، واعتبار الدروشة في الطعام واللباس والغفلة عن إبصار الآيات والاعتبار بالأحداث والتفكر في خلق السموات والأرض والتدبر لآيات القرآن والزهد الأعجمي والعزوف عن زينة الحياة... من علامات الصلاح!

هذا اللون من التخلق، أو هذا النمط من المسالك والأخلاق، المنفر، المعطل للحياة، قاتل لروح الفرد وفاعليته، مميت لروح الدين، مصداقاً للأثر: «أمات علينا ديننا»، هذا عدا عن بعض ما يمكن أن يكون من ممارسات شاذة وانحرافات تمارس تحت اسم «التصوف» وتعتبر من مستلزماته ومقاماته؛ هـذا اللون من التخلق، ترك نفوراً وانطباعاً بأن الأخلاق كما تتجسد في حياة دعاتها أو مدعيها، على الأصح، هي في الواقع دعوة للتخلف والهروب والانسحاب من المسؤولية، كما أنها تناقض العلم والمعرفة والترقي وحسن بناء الحياة وإقامة العلاقات السوية.

لقد أصبح شائعاً أن مفهوم الأخلاق مناف لمفهوم العلم والإبداع والإتقان والحضارة وبناء المجتمع وتطهيره من الأمراض والآثام، وبذلك

انفصلت الأخلاق عن مسيرة الحياة، بكل مناحيها وأنشطتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وحتى الإعلامية والتربوية، ووُضع الإنسان وفق هذا المفهوم الشائع أمام الخيار الصعب، وبدل أن تكون القيم الأخلاقية وسيلة لصناعة الحياة الطيبة الطاهرة النظيفة والمنتجة، الراقية، أصبحت سُبّة ومعرة يهرب الناس منها بدل أن يهربوا إليها، واعتبرت عائقاً ومعوقاً؛ والشواهد على هذا الفهم المعوج المتجلي في حياة بعض الناس أكبر دليل على العطالة والعجز والانسحاب، الذي يتناقض مع الكسب والسعي والإنتاج والإتقان والارتقاء والتقدم، الذي عاشه جيل خير القرون، ذلك أن الأخلاق إنما تُطلب لصناعة الدنيا واستقامة أمرها، وتطهير وتنقية علاقاتها، والحيلولة دون الفساد والإفساد، فإذا فقدت وظيفتها ورسالتها تحولت لتكون وسيلة إفساد، وهذا هو البلاء الحقيقي والحالقة الاجتماعية.

والقليل القليل من الناس من يستطيع تجاوز الصورة إلى الحقيقة، والمجسَّد في حياة الناس إلى القيمة المجردة، وفعل الأشخاص إلى إدراك القيم والمبادئ، أو تجاوز الذات إلى القيمة، وهذه إشكالية الإصلاح الحقيقية؛ حيث إن الأزمة في حقيقتها أزمة أخلاق، قد تكبر في النخبة وتضمر في الأمة، أو أزمة غياب القيم الأخلاقية عن صناعة الحياة بمبررات واهية.

وقد تكون الإشكالية الأخطر اليوم أن الأزمة تكمن في (الذات) المسلمة العاجزة عن تمثل الأخلاق الإسلامية في مسالكها وإثارة الاقتداء، وليس في (الآخر) الذي يُبصر الحال التي عليها المسلم من التخلف والتراجع

الحضاري، على مستوى المجتمع والأمة والدولة والذي يصر الكثير من المسالك الشائنة من الغش والمكر والكذب والخداع مما لا تقبله الفطرة أو يقبله الإنسان السوي، فضلاً عن الإنسان المتدين.

والقيم الخلقية في الحقيقية ليست شيئاً منفصلاً عن القيم الدينية، فالقيم الأخلاقية هي ثمرة للقيم الدينية ومتلازمة معها وملتصقة بها.

بل لعلنا نقول: إن بناء الإسلام، ابتداءً من تصويب التصور في العقيدة وتشريع العبادات والمعاملات جميعاً من صلاة وصوم وحج وزكاة وبيع وشراء وسلم وحرب وعهد وذمة إنما هي وسائل لصناعة الحياة الطيبة الطاهرة النظيفة، وبناء دنيا، فالدين في حقيقة مقاصده إنما شُرع لهندسة الحياة الدنيا.

فالصلاة، التي يمارسها المسلم خمس مرات يومياً، تحقق التواصل والتجديد والتجدد والمراجعة، ومن أهم ثمراتها النهي عن الفحشاء والمنكر ﴿... إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ...﴾ (العنكبوت:٤٥)، ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليس له منها إلا القيام والقعود، فإذا غابت ثمرتها تحولت لتصبح أشباحاً بلا أرواح، ليس لصاحبها منها إلا القيام والقعود.

والصوم إنما شرع لبناء التقوى والتدريب على الفضائل الخلقية شهراً في السنة، وتمريناً على انتصار الإرادة والفطرة على ضغط الشهوة، فـ«مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ

وَشَرَابَهُ» (أخرجه البخاري)، و«رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ» (أخرجه أحمد).

والزكاة، التي تختلط فيها العبادة المالية بالعبادة النفسية والبدنية طهارة ونماء، فهي إحساسٌ بحق الآخرين، وتكافلٌ معهم، وارتقاءٌ بالنفس إلى مقام الحب والإيثار، ومحاربة لنزعة الأثرة، فهي تطهير للمال من حقوق الآخرين، وتطهير للمجتمع من الفقر والعوز، وتطهير للنفس من الشح والبخل، وسبب في تنمية المال والمباركة فيه، ووسيلة لتنمية الروح الجماعية وتمتين أواصر التماسك المجتمعي.

والحج اختزال لتاريخ النبوة ومعالمها الرئيسة في رحلة العمر، فهو تجديد وتجدد وولادة جديدة خالية من الآثام لاستئناف مسيرة عازمة على الرشد والطهر، وتواصل بين التاريخ والحاضر وصناعة المستقبل، فـ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ (البقرة:١٩٧)، و«مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» (أخرجه البخاري).

وهكذا، فإن العبادات هي وسائل لصناعات أخلاقية تضبط سلوك الفرد والمجتمع، وتنظم تعاملاته، وتحول دون نزاعاته واعتداءاته، وليس أمر المعاملات من بيع وشراء أو سلم وحرب وعهد وذمة بأقل شأناً في البناء الأخلاقي، أو في إقامتها على القيم الأخلاقية في الوقت نفسه؛ فلا قيمة للقيم الأخلاقية إذا لم تضبط مسالك الجهاد في الساحات الملتهبة، التي يتحرك

فيها الحقد وتثور روح الانتقـــام والتشفي والثأر؛ ولا قيمة للقيم الأخلاقية إذا لم تضبط معاملات البيع والشراء والتروع إلى الكسب المـــادي وتنظـــيم العلاقات الاجتماعية، والسلم والجنوح إلى إعلان الحـــرب، والمعاهـــدات، وشؤون الحكم، وسياسة المال والكسب والإنفاق، وتنظيم علاقات الأســـرة والدولة، وعلاقة الحاكم بالمحكوم.

ونؤكد القول: إن الدين في المحصلة النهائية والتكاليف المتنوعة هو إعادة بناء الإنسان، وإكسابه مجموعة من الخصائص والصفات الذاتية، التي تؤهلـــه للوراثة الحضارية وبناء حضارة الرحمة وإتمام محاســـن الأخـــلاق ﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (الأنبياء:١٠٥).

فالأخلاق التي تبينها القيم الدينية والتكاليف الشرعية هـــي في النهايـــة الحاضن الرئيس لكل مفاعيل ومسالك الحياة وهجر ما نهى الله عنه.

وقد يكون من المفيد النظر إلى القيم الأخلاقية أو المسألة الأخلاقية من زوايا أخرى، أو من وجهات نظر ومناهج ورؤى أخرى، ذلك أن المـــسألة الأخلاقية أو القيم الأخلاقية كانت ولا تزال تاريخياً مجالاً للأخـــذ والـــرد، والتجاذب والتباين، والتناقض بين الناس، واختلاطها بالتقاليد والأعراف منذ أن خلق الله الإنسان، وسوف تبقى مجالاً للحوار والنقاش والمجادلة والتجاذب والمدافعة حتى ينشئ الله النشأة الآخرة.

ونسارع إلى القول: إنه طالما أن وضع القيم والمعايير الأخلاقية يخـــضع لآراء الإنسان وأهوائه ومكوناته وشاكلته الثقافية دون الارتكاز إلى قاعـــدة

ثابتة أو قيم مسلَّم بها ومجربة ومتجسدة في حياة البشر فسوف تبقى مجالاً للتناقض والتباين والتعاكس والتضارب والتحيز والخضوع لكثير من الضغوط والمؤثرات الحزبية والقبلية والطائفية والعرقية واللونية، إضافة إلى وجود الفوارق الفردية وتباين الكسب المعرفي والثقافي، الذي يؤدي بها إلى الاهتزاز والاضطراب وعدم الثبات.

هذا من جانب، ومن جانب آخر نرى أن كل إنسان مدفوع أو يترع دائماً، بأصل تكوينه وحبه لذاته (نمو الأنا) ونرجسيته، إلى تبرير وتسويغ سلوكه وتصرفاته وبيان فضله وعقله وتميزه، وهذا يؤدي به في كثير من الأحيان إلى أن يصير خُلُقه هواه، وبذلك فلا تثبت الأخلاق على حال ولا تستقر بإنسان، وتبقى عرضة للأمزجة والأهواء، إنما تتحول وتبدل لتصير، إلى حدٍ بعيد، أشبه بذلك الجاهلي، الذي كان يصنع صنمه (إلهه) من الطعام، وإذا جاع أكله.

فالأخلاق في هذه الحال تصبح عبثاً من العبث، إضافة إلى أن الناس جميعاً ومهما كانت مستوياقم وفوارقهم الفردية يعتقدون أن الله خلقهم من أصل واحد، وينظرون إلى أنفسهم وكأنهم يعيشون على مائدة مستديرة في هذه الحياة، وبهذه الحال، أيهم يصبح الأحق بوضع واختيار المعايير والقيم الأخلاقية للآخرين؟ وكيف له أن يقنع الآخرين بالتزامها والثبات عليها؟ وما الضمانات الممكنة لامتدادها وعدم خرقها وتجاوزها؟ وما الضمانات، أيضاً، لئلا تكون هذه القيم المتأتية من أحدهم جسراً يمر من فوقه لاستغلالهم والتسلط والتعالي عليهم ومحاسبتهم ومحاكمتهم وابتزازهم؟

وفي كل حال، تبقى مثل هذه القيم الموضوعة من الإنسان، صاحب العلم المحدود والعمر المحدود نسبية؛ لأن واضعها بطبيعة واقعه عاجز عن إبصار العواقب البعيدة، وهو دائماً عرضة للتقلب والتغيير والبداء، وكلما تغير واقع الإنسان وتغيرت نظرته وتجاربه تتغير نظرته للأمور وحكمه عليها، لذلك فهي إذن تبقى محلاً للتغيير بالنسبة لذات الإنسان، الذي وضعها، فما بالنا بالآخرين؟!

بل لعنا نقول: هي من أكثر القيم نسبية، وأكثرها هيولية وعدم انضباط، فما يراه إنسان أو مجتمع حسناً قد يراه إنسان آخر أو مجتمع آخر سيئاً قبيحاً، وكثيراً ما تقدس بعض التقاليد الجائرة والموروث الاجتماعي والعرف الفاسد وتختلط بالأخلاق، فتصبح هي القيم الأخلاقية، أو أخلاقاً اجتماعية وفردية في الوقت نفسه.

ويبقى السؤال الإنساني الكبير المطروح حول كيفية الوصول إلى قيم ومعايير أخلاقية تشكل دليل سلوك ومعيار سلوك آمن في الوقت نفسه، وسبيلاً للخلاص من حالة الفوضى والتناقض، وتحقيق قدر من المشترك والتوافق والتعايش والانسجام، بحيث تشكل قاعدة صلبة يرتكز إليها الجميع، أو تشكل لهم معايير وأعراف وقوانين ضبط اجتماعي لمسالكهم وتمايزهم وتسابقهم بالارتقاء والامتياز.

فالأخلاق بذلك تشكل وسيلة ارتقاء وهدف استباق في الوقت ذاته، تنطلق منها العملية التربوية والتعليمية، وتدرب عليها، ابتداءً من الأسرة نواة

المؤسسة الاجتماعية، ومزرعة بذور مستقبل الحياة السلوكية، ومروراً بالمدرسة والجامعة والمجتمع ومؤسسات المجتمع المدني، وتنعكس على المسالك العامة في الأمة، وتتحول لتصبح التزاماً وكأنها أمر عضوي في كيان الإنسان قبل أن تكون إلزاماً وإكراهاً من خارج النفس، الأمر الذي تأباه فطرة الإنسان، شأن كل إكراه، الذي خُلق حراً مختاراً مكرّماً، وليس مُكرهاً مجبراً مهاناً.

والسؤال عن كيفية الوصول إلى قيم ومعايير أخلاقية ثابتة تشكل دليل سلوك ومعيار امتياز - كما أسلفنا - وتحول دون التسلط والتعالي وتحمي حرية اختيار الإنسان وكرامته وإشعاره بالمساواة مع أمثاله من البشر، يتطلب سؤالاً آخر كبيراً: من أين نستمد هذه القيم؟ وهل الإنسان أو الجماعة الإنسانية بمكوناتها وظروفها وتكوينها مؤهلة لوضع موازين ومعايير الأخلاق؟ هل هي مؤهلة لوضع القيم الأخلاقية؟ ومن أين لنا أن نلزم الآخرين بها، وما الضمانة لالتزامهم بها؟

ومن وجهة أخرى: هل يصبح عقلاً ومنطقاً وواقعاً أن يكون الإنسان هو نفسه واضع القيم والمعايير الأخلاقية ويكون سلوكه محلاً لإعمال هذه المعايير والموازين؟ أو بمعنى آخر، يصبح نفسه المعيار والميزان ومحل المعايرة والتقويم؟ وهل يقبل الآخرون أن يضع لهم هذه المعايير؟ وما هي الضمانات -كما أشرنا سابقاً- ألا تكون تلك المعايير محلاً للمحاباة، وجسراً للتسلط والتمايز والترفع، وتحيزاً لفئة أو حزب أو جماعة أو مذهب أو طائفة؟ وكيف السبيل للوصول إلى قيم ومعايير بريئة من التحيز والتسلط والتلاعب والتغيير، وتساوي الناس أمامها؟

لذلك نقول: إن الموازين والمعايير والقيم الأخلاقية سوف لا تسلم من هذه الإصابات، التي كانت سبباً في إسقاطها وتجاوزها في كثير من مجالات الحياة، ما لم تُستمد من سلطة خارجة عن الإنسان، يؤمن بعلمها وحكمتها وحياديتها وعدلها فيخضع لها الإنسان، ويؤمن بمصدريتها للقيم، وبخيريتها وصلاحها وإصلاحها لمسالك الفرد والمجتمع، إنها قيم تؤمن العدالة والمساواة، وترتب الثواب على التزامها، والعقاب على اختراقها، وتقيم وتربي الوازع الداخلي لمراقبتها، والالتزام بها، أو خرقها، وأن تكون جزءاً من الإيمان بالله، المنزّه عن الخطأ والنسيان والانحياز، وتؤمن بوحدانيته، التي تعني المساواة لا المحاباة، وتمتعه بصفات الكمال من الرحمة والعفو والحلم والمغفرة والعدل.

إن إيمان الإنسان بصفات الله ليس شأناً سلبياً وإنما يضفي عليه نوعاً من التطلع لامتلاك حيز ونصيب منها، واستشعار ذلك عند التعبد بدعوتها وندائها، حيث ينعكس ذلك الإيمان على تربية نفسه، وإدراك الرابط الوثيق بين الإيمان والأخلاق، فـ**«الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»** (أخرجه مسلم).

فالأخلاق إيمان، والإيمان تصديق وعقيدة وعمل، فهي دين من الدين، الذي شرعه الله لصناعة الدنيا الطيبة الطاهرة، فالدين للدنيا وليس للهروب منها -كما أسلفنا- باسم الخلق والزهد الأعجمي والتصوف الضال عن الحق، المنحرف عن الصواب.

وسوف لا يستقيم أمر الأخلاق وتؤدي وظيفتها في طهـــارة الحيـــاة وتنظيفها من الفساد وتمتين الأواصر الاجتماعية وبناء مجتمع الفطرة والتروع إلى القيم السامية والتزام الإنصاف ما لم تكن ديناً من الدين أو هي الـــدين، فـــ«الدين المعاملة»، وأن يكون للوازع الداخلي والرقابة الذاتيـــة وســـلامة التوارث الاجتماعي الدور المحوري في التربية والتعليم والإعلام والتـــشكيل الثقافي؛ ليقوم هذا الوازع مقام التشريع من خارج النفس، ويقـــوم مقـــام قوانين الضبط الاجتماعي، خاصة عندما يغيب الرقيب من خارج الـــنفس، فإن الذي يعلم السر وأخفى، الذي لا تخفى عنه خافية، له الحضور الكامـــل في نفس المؤمن، في سره وعلنه.

والقيم الأخلاقية في الإسلام لم ترتكز إلى إيقاظ الوازع الداخلي فقط، على أهميته ودوره وما يترتب عليه من ثواب وعقاب، وإنما سعت إلى وضع التشريعات الملزمة، وقوانين الآداب العامة، والضبط الاجتماعي، والأعراف المتولدة من القيم الدينية، بل لعلنا نقول: إن القيم الأخلاقية جزء لا يتجـــزأ من عقيدة المسلم وعبادته وحركته وأنشطته في مختلف المجالات، ولعلها آكد في إطارات الحكم والسلم والحرب والمعاملات المالية والعلاقات الاجتماعية والأسرية؛ لأن الحاجة إليها أشد، فالقيم الأخلاقية في نهاية المطـــاف هـــي الحاضن لكل حركة وسلوك في الحضارة الإسلامية، حضارة الوحي والنبوة والعقل والشورى والعدل والمسؤولية والإيثار والأخوة والتعاون على الـــبر والتقوى والتنافر من الإثم والعدوان.

وقد تكون محاولات التملص من القيم الأخلاقية والالتفاف عليها، ومحاولات عزلها، وتوهين أثرها، واستبدالها أو إلغائها أو إقامة أعراف وتقاليد جديدة من سنن المدافعة، التي تشكل جدلية الحياة الأزلية بين دوافع الخير ونوازع الشر ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (الفرقان:٣١)، بين النزوع إلى دواعي ومقتضيات مجتمع الفطرة وبين الارتكاس إلى مجتمع الغريزة وضغط الشهوة ومغالبة الإرادة.

فتارة توسم الأخلاق بأنها بضاعة المفلسين وأحياناً توسم بأنها من اختراع بعض النصابين والمشعوذين لابتزاز البسطاء، والتحكم بهم، وحرمانهم من متع الحياة ولذائذ العيش، ليظفروا بها من دونهم، وتارة توصف القيم الأخلاقية بأنها قيود تحاصر الإنسان، وتنتقص من حريته الشخصية، وتكلفه بمسالك تحمل له المعاناة وصعوبة محاولات التكيف الاجتماعي لتحسين السمعة واكتساب رضا الآخرين، وأن سعادة الإنسان ولذته ومتعته لا تتحقق إلا بالتمرد والانعتاق من هذه القيود، وممارسة كل ما يحلو له، بحيث ينطلق وراء شهواته ونزواته في كل الاتجاهات، ويُسقط حتى العقل، الذي يأمره ببعض التصرفات ويمنعه من بعض الأفعال، تحت شعار: فليسقط العقل؛ لأنه يمثل النسخة المزيفة للإنسان، التي تأمره وتنهاه وتقيده لصالح الآخرين (ما ذهبت إليه المذاهب الوجودية) فينطلق وراء شهواته، وينتهي إلى مجتمع الإباحة والإباحية.

وفي أحسن الأحوال تقوم محاولات إلى اعتبار أن القيم الأخلاقية وبعد أن صعُب اقتلاعها؛ لأنها نداء الفطرة الإنسانية، شأن فردي أو شخصي خاص باختيار الإنسان لنفسه، بعيداً عن التدخل في مسالك المجتمع وتنظيم العلاقات الاجتماعية والسياسية والإدارة، وكأن الإنسان يعيش في جزيرة معزولاً عن الآخرين(!)

فما فائدة القيم الأخلاقية العملية إذا انحصرت في إطار الفرد و لم تتعداه إلى مجتمعه؟ وأنى له أن يعيش هذه الحياة الاجتماعية المبتورة عن محيطها؟ وما هي الحدود الفاصلة بين الشأن الشخصي والشأن العام؟ وكيف يمكن أن نحدد ذلك، وما هي أداته؟ وكيف نحول دون التداخل بين الحرية الشخصية والخصائص الشخصية، وأثرها في الفعل الاجتماعي، وكون الإنسان عضواً في مجموعة؟ وكيف يمكن أن نقيم جداراً مانعاً يحول دون امتداد أثر الأخلاق الشخصية للفعل العام، ونمزق الإنسان ونبعثره ونشطره إلى مجموعة حقول متناقضة كحال من يخضع لشركاء متشاكسين ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:٢٩).

ولا شك أن محاولات التملص من القيم والضوابط الأخلاقية للفعل الإنساني الجماعي، وحصرها في الشأن الفردي، في حال قبولها وعدم القدرة على اقتلاعها من الفطرة، إنما كان إحدى النتائج المدمرة لفصل المجتمع والحياة عن القيم الدينية، أو ما اصطلح عليه بفصل الدين عن الدولة، واعتبار

الدين شأن شخصي، وتسويغ ذلك بإيراد بعض الممارسات المنحرفة في تاريخ التدين، أو تطبيق تلك الحقب التاريخية للتدين المنحرف، وتعميمها على كل مجتمع وكل دين وكل عصر، وبدل أن يُفكر بتصويب الانحراف ومعالجة العلل بدارسة أسبابها نلغي القيم الدينية والخلقية من حياة الناس، ونعيدهم إلى البهيمية أو البوهيمية!!

وليس ذلك فقط، وإنما تطرح قضايا كمقدمات ومسوغات لمثل هذا التملص على أنها مسلمات غير قابلة للمناقشة والفحص والاختبار للارتكاز إليها والبناء عليها، والخلوص إلى نتائج ومسلمات في النهاية تقصي القيم الخلقية والدينية عن حياة الناس، بحجة أن ميدان الفعل السياسي والاقتصادي والإعلامي والإداري قائم على المكر والكذب والخداع والابتزاز والتلاعب والمصالح، وليس المبادئ والتزام القيم الأخلاقية والدينية، وكأن تلك المقدمات حقائق مسلمة ومفاهيم مقدسة لا يجوز أن تمس أو تناقش!

فطالما أن السياسة نجاسة والدين طهارة فلا يلتقيان ولا يشتركان في بناء أمة! فهل ذلك كذلك حقاً؟ ولماذا لا تكون السياسة قائمة على الصدق والعدل والشورى والمناصحة وعفة النفس ونظافة اليد وحسن العهد....إلخ، وأنها تعتبر الميدان الأحوج إلى القيم الدينية والأخلاقية، للحيلولة دون سوءاتها وسيئاتها، وكذلك شأن الإدارة والاقتصاد والإعلام...؟

ذلك أن الفساد أصبح يعم العالم، وأن الأزمة السياسية والمالية والإعلامية يجتاحها الفساد والتآمر والخداع والتلاعب وغسيل الأموال والغش والخيانة

وامتداد الكثير من الأخلاق والمسالك الشخصية الشائنة والمنحرفة للشأن العام....إلخ؛ الأمر الذي يدلل على فساد المحاولات المستمرة لعزل القيم الأخلاقية والدينية عن حياة الناس، ويؤكد الحاجة إليها في شتى المجالات، بحيث تصبح القيم الأخلاقية متاحة لجميع الناس، وخطاباً لكل الناس، وبمتناول كل الناس، وليست حكراً على طبقة أو تنظيم أو جماعة تمارس الوصاية والكهانة، فالقيم الدينية حق للناس جميعاً، وأن حسابهم على الله وليس موكولاً للبشر، وأنه لا وصاية عليهم لمخلوق مثلهم ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق:٤٥).

فلابد من تصويب صورة الدين، وبيان حقيقة التدين، التي شوهت على أيدي بعض أتباعه والكثير من أعدائه، وتقديم نماذج تثير الاقتداء وتبين فساد ما ذهب إليه العالم اليوم، الذي يدفع ثمنه من أمنه وسعادته، حيث أزمة الحضارة اليوم، في الحقيقة، هي أزمة أخلاق، فهي بعزل الأخلاق والتمرد عليها تحولت إلى حضارة ميكيافلية، الغاية فيها تبرر الوسيلة، حضارة هيمنة وتسلط وعبث وفساد وجاسوسية، حضارة اللذة والفضائح الجنسية والاغتصاب، حتى وصل فسادها وانحرافها المخزي إلى المؤسسات الدينية، حضارة بلا أخلاق، تدعي أنها تقوم على المصالح لا المبادئ، وكأن التزام القيم الأخلاقية يفوّت المصالح!

وفي المقابل، لا مناص من الاعتراف بأن الحضارة الإسلامية في عصر التخلف والتراجع الحضاري، اليوم، أصبحت في وضع لا يغري بالاتباع،

ولا يثير الاقتداء، فلقد عجزت، لأسباب متعددة لا مجال لاستقصائها، أن تقدم أنموذجاً يثير الاقتداء ويغري بأخلاقها وقيمها بشكل عام؛ حضارة قعدت بأهلها عن الإبداع والابتكار والعطاء باسم الانقطاع للعبادة وإقامة الدين، لكنها لم تتوقف عن الادعاء، دون أن تدرك أبعاد إيصال رسالتها إلى العالم، وتدرك دور القيم الأخلاقية في الخلاص الإنساني، وفاعليتها في النفس والآخر.

وحسبنا مثالاً واحداً في هذا المجال يوضح أثر القيم الخلقية والمواقف المتولدة منها في التغيير، وهو أن جندياً جزائرياً التزم بالقيم الأخلاقية الإسلامية فكان هذا الموقف سبباً في اعتناق أكبر فلاسفة اليسار ومفكريه الإسلام «روجيه جارودي»؛ فكيف سيكون الحال لو كنا في مستوى أخلاقنا الإسلامية سلوكاً، وعصرنا تقدماً وإبداعاً؟

وعلى الجملة، يمكن القول: إن معاصي حضارة الغالب اليوم هي في معظمها معاصي انحرافات جوارح وغرائز، أما الكثير منا فيعاني من معاصي القلوب والنفوس، وهي الأخطر، يقول الرسول ﷺ: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» (أخرجه مسلم)، و«**مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»، يقول أبو ذر ﷺ: قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «**وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ**»، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «**وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ**»، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «**وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ**» (أخرجه البخاري).

وقضية أخرى، قد يكون من المفيد الإشارة إليها في هذا المجال، وهي أن الرسول القدوة، الذي جاء ليتمم محاسن الأخلاق، قدم أنموذجاً للاقتداء

في المجالات الحياتية والأنشطة الإنسانية كلها، في البيت والأسرة والدولة والمجتمع والسلم والحرب والعهد، حيث الأخلاق كانت ولا تزال هي الدرع الواقي للحياة الإنسانية.

فلقد عاش في مجتمع يسوده الكفر والظلم والجحود والنكران في مكة، فصبر وصابر ولم يتزحزح عن أخلاقه وقيمه قيد أنملة ويقع في ردود الفعل مرة واحدة، كما أنه عاش في مجتمع يُروج فيه النفاق والمكر والخداع، ومع ذلك لم يتنازل عن التزام القيم الأخلاقية والتعامل من خلالها، حتى مع الأعداء، حتى مع الذين نالوا منه ووجهوا سهامهم المسمومة إلى بيته وعرضه ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ...﴾ (الأنفال:٦٢)،﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ (الأنفال:٧١)، ولم تحمله شدة العداوة على الحقد والثأر والانتقام والتشفي وتجاوز أخلاق الحرب والسلم، التي شرعها الدين؛ ولقد استطاعت القيم الأخلاقية الإسلامية أن تثبت وجودها في عالم السياسة والمال والإدارة والعلاقات الاجتماعية والقيادة في السلم والحرب.

فهل من سبيل إلى العودة للقيم الأخلاقية الإسلامية والمساهمة في إعادة بناء الحضارة وإنسانها بعد هذا التداخل البشري والانفتاح العالمي، الذي يحمل من المصائب والوباء الاجتماعي لحضارة الغالب البلاء الكثير، كما يحمل من الإمكانات والمساحات والمجالات، التي تفتح المجال لتقديم نماذج غائبة أخرى تغري الإنسان بها؟

وهل يدرك المسلمون في مجالات الأنشطة جميعاً دور القيم الأخلاقية في استرداد الفاعلية وتوجيه دفة العلم صوب الغايات والوسائل النظيفة والنبيلة، خاصة بعد أن كاد يدرك العالم اليوم آفاق الخلل والإصابات البالغة لانفصال المعرفة عن أخلاقها وآدابها، وبدأت الطروحات عن أهمية النظر في أخلاق وآداب المهن، ويعقد لذلك الندوات والمؤتمرات، بعد هذا الجنوح الحضاري الرهيب الرعيب؟

وهل يقدم المسلم أنموذجاً للإنسان الجديد، في عصر العولمة، بعد هذا التشوه في التدين والتشويه لوجه الإسلام الحقيقي؟ ذلك أن الأمر لم يعد يقتصر على الإساءة لصورة الإسلام في الحاضر، نتيجة للممارسات الشاذة والتفكير المعوج والفتاوى الفاسدة، وإنما بدأ يمتد ليشوه التاريخ الحضاري للمسلمين، يشوه صورة السلف الصالح، الذي بات الانتساب إليهم سبة وعبئاً ومعوقاً بدل أن يكون دافعاً ومحرضاً وإمكانية لهوض!

وبعد:

فتجيء أهمية هذا الكتاب، الذي يأتي في شهر رمضان المبارك، شهر التدريب على فعل الفضائل ومكارم الأخلاق وتحقيق التقوى، في هذه المرحلة المهمة من التاريخ الحضاري الإنساني، حيث يقف العالم اليوم أمام المنعطفات الكبرى والنماذج المتباينة والتداخل العالمي بين كل العروق والأجناس والأديان والحضارات، بكل ما يتولد عن ذلك من مشكلات وأزمات وقضايا أخلاقية ودواع للجوء إلى الفكر الدفاعي، والدخول في

المواجهات المفروضة والمفترضة، وفرض وإكراه حضارة الغالب المهيمنة، بكل أزماتها وفسادها المالي والسياسي والاجتماعي وطابعها الإباحي، حيث لم تعد تقتصر تلك التصرفات الشاذة على الشأن الشخصي بل امتدت إلى مؤسسات الحكم والإدارة والمال والمؤسسات الدينية، والافتتان بتقدم (الآخر)، والعجز عن التفريق بين الصورة والحقيقة، حيث بدأت القيم الأخلاقية الإسلامية تغيب عن إنساننا ومجتمعاتنا شيئاً فشيئاً، ونسقط ضحايا وفرائس لثقافة وعادات الآخرين، دون القدرة على محاكاة تقدمهم العلمي والتقني.

جاء هذا الكتاب ليعيد فتح ملف القيم الأخلاقية، ويجدد الذاكرة التاريخية والمعرفية تجاهها، ويقدم أنموذج الاقتداء الخالد في كل المجالات والأنشطة، ويعرض للأسس التي تقوم عليها مكارم الأخلاق، ويضع خارطة العمل المطلوب لممارسة هذه الأخلاق في مجالات العلاقات والأنشطة الإنسانية، ويبين دور الأخلاق في بناء الحياة الطيبة السعيدة، ويؤكد أن الأخلاق هي إكسير الحياة السعيدة الطيبة والحاضن الأساس للحضارة الإسلامية، بكل شُعبها، وأن دور القيم الدينية والأخلاقية هو صناعة الدنيا النظيفة الطاهرة، فالدين للدنيا، وليس للهروب والانسحاب منها وتنفير الآخرين من تعاطيها.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

تمهيد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فيقول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤) ويكفي نبينا محمداً ﷺ هذا الثناء العظيم من الرب العظيم، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، وعصمه من الفواحش والدنايا، وأكرمه بمحاسن الأخلاق، وجعله أسوة حسنة لعباده، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١)، وهذه الآية الكريمة، كما يقول ابن كثير، رحمه الله، عند تفسيرها: «أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله»[١].. وتصف السيدة عائشة، رضي الله عنها، خُلُقه، عليه الصلاة والسلام، بقولها: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ»[٢]. ويتوج ذلك ﷺ بالتقرير أنه بعث ليتمم صالح الأخلاق، ففي الحديث أنه قال ﷺ: **«إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ»**[٣].

---

(١) تفسير القران العظيم، ابن كثير (الرياض: دار السلام للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ) ص١٠٥٦.

(٢) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج (الرياض: دار السلام، ١٤٢١هـ) كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، حديث رقم ١٧٣٩.

(٣) مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل (الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٤١٩هـ) حديث رقم ٨٩٣٩.

وكان ﷺ يُثني على من كان له خُلق حسن، ويعده من خيار المسلمين، فيروي البخاري في الصحيح قوله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاقًا**»[1]، وكان ﷺ يحث أمته في مواطن شتى على التحلي بمكارم الأخلاق، والحرص على التزامها، ودعاء الله عز وجل أن يتحلى بها العبد وأن يهديه الله عز وجل لأحسنها، وأن يجنبه سيئها، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في وصفه لبعض دعائه ﷺ في صلاته قوله: «**وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاقِ، لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا، إِلا أَنْتَ**»[2]. وكان من دعائه ﷺ قوله: «**اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي**»[3]، كما كان يحث على التمسك بمكارم الأخلاق مما كانت العرب تتحلى بها قبل الإسلام، ومن ذلك ما يرويه السّائب بن عبد الله قال: «جِيءَ بِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، جَاءَ بِي عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَزُهَيْرٌ فَجَعَلُوا يُثْنُونَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **لا تُعْلِمُونِي بِهِ قَدْ كَانَ صَاحِبِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ**، قَالَ: قَالَ، نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَنِعْمَ الصَّاحِبُ كُنْتَ،

---

(١) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (الرياض: دار السلام، ١٤٢١هـ) كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، حديث رقم ٣٥٥٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، حديث رقم ١٨١٢.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر (بيروت: بيت الأفكار الدولية، ٢٠٠٤م) ٣/٢٦٥٤.

قَالَ: فَقَالَ: يَا سَائِبُ، انْظُرْ أَخْلاقَكَ الَّتِي كُنْتَ تَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَاجْعَلْهَا فِي الإِسْلامِ، أَقْرِ الضَّيْفَ، وَأَكْرِمْ الْيَتِيمَ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ»[1].

وهذا الاحتفاء بموضوع الأخلاق في سيرته ﷺ، وحثه عليها ما هو إلا جزء من عناية الإسلام بموضوع الأخلاق الكريمة عموماً، والحرص على تنشئة النفوس عليها، وجعلها نبراساً للتعامل بين الناس، البعيدين والقرباء، ليكون المسلم داعياً إلى الله عز وجل بسلوكه وأخلاقه، فكم كان التعامل الحسن سبيلاً مذللاً لدخول أفواج كثيرة إلى دين الله عز وجل، وما أحوجنا في هذا العصر إلى نشر ثقافة الأخلاق الكريمة، التي أتى بها الإسلام وحث عليها، وما أحوجنا إلى نشر صور من ممارساته ﷺ لتلك الأخلاق الكريمة ليترسم الإنسان المسلم معالم الطريق في التطبيق العملي، وحتى لا يرد على الخاطر أنها مجرد تعاليم مثالية، أو أنها قيم عليا عرضها الإسلام نظرياً، تاركاً الناس تتخبط لتطبيقها أو تنظر إليها في سماء الخيال.

فلم يكن محمد ﷺ فيلسوفاً يضع النظريات وهو يقيم في برج عاجي، لا يعيش مع الناس والمبادئ التي يدعوهم إليها، أو كان يترك لغيره متاعب الدعوة والتطبيق، وإنما كان داعياً ومربياً ومرشداً إلى مكارم الأخلاق، وممارساً لها مع الكل، فلقد جمع رسول الله ﷺ مكارم الأخلاق تنظيراً، وتطبيقاً، وحثاً، وممارسة عملية لها في حياته ﷺ، وفي توازن عجيب فلا يطغى جانب على آخر.

---

(١) مسند الإمام أحمد، مسند المكيين، حديث السائب بن عبد الله، حديث رقم ١٥٥٨٥.

وفي هذا العصر، الذي يعيشه المسلمون وسط اضطراب أخلاقي، نتيجة لاستجلاب العديد من القيم من الشرق والغرب للمجتمعات الإسلامية، واعتبار هذه القيم مثالاً يُحتذى ونبراساً يُقتدى، وما ذلك إلا تأثر بمناهج الكفار والسير معهم حذو القُذة بالقذة، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق في الحديث المتفق عليه، وهو قوله ﷺ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ»[1]. وبكل حال فهذه سنة من سنن الله في الحضارات، في كون المغلوب يتبع الغالب في هديه وسننه، كما أشار إلى ذلك عالم الاجتماع المسلم والمؤرخ ابن خلدون في مقدمته إذ يقول: «وترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه، في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله»[2].

ونحن في هذا العصر، الذي ظهر فيه تفوق العالم الغربي في العلوم المادية، والحضارة المدنية، نجد بعض المسلمين يتخذ من هذه الحضارة منهجاً للسير، اعتقاداً منه بكمالها من جميع الجوانب، واغتراراً بها؛ لما يرى من

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: لتتبعن سنن من كان قبلكم، حديث رقم ٧٣٢٠؛ وصحيح مسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، حديث رقم ٦٧٨١؛ واللفظ للبخاري.

(٢) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٥هـ) ص١٤٦.

تفوقها العلمي والمادي. ولعل الأخطر في ذلك عندما تنظر الشعوب المسلمة إلى الأخلاق، وكأنها متغيرة بتغير الزمان والمكان، أو اعتبار الحسن منها ما عده الناس حسناً وتعارفوا عليه في زمن من الأزمان أو مكان من الأمكنة، متباعدين في ذلك عن منهج الإسلام، الذي ينظر إلى الأخلاق على أنها مرتبطة بالدين والوحي ولا تنفك عنه بحال من الأحوال، فالخلل يكون حين ينظر المسلمون على أن الأخلاق «قيماً اجتماعية يضعها البشر ويتعارفون عليها بأنفسهم، وتُقطع صلة الأخلاق بالدين وبالوحي الإلهي حتى يكون في مقدور الناس أن يغيروا أو يبدلوا في قيم الأخلاق، وفي السلوك والتعامل بينهم، بحسب الأهواء والمصالح، على اختلاف الزمان والمكان»[1]. فهذه النظرة تجعل المسلم يتخبط في بحثه عن الخلق القويم الذي يكون الالتزام به تعبداً لله عز وجل، وليس مجرد تقليد مجتمعي.

ومن هنا تأتي هذه الدراسة لتعرض جزءاً من أخلاق الرسول ﷺ في تعامله الأُسري، في بيته، ومع أهله، وأقاربه، لتكون مناراً يهتدي به كل مسلم، وكل راغب في نشر السعادة في بيته، وبسط روح الطمأنينة في حياته الخاصة والعامة، كما تحاول هذه الدراسة إيراد الشواهد العديدة من الممارسات الأخلاقية في حياته ﷺ.

---

(١) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، صالح بن حميد، وعبد الرحمن بن ملوح (جده: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ) الجزء ١، الصفحة (ل هـ).

وأسأل الله عز وجل أن يكون في هذا الدراسة بعض التعبير عما تكنه النفس من حب وإجلال للنبي ﷺ، آملاً في الدخول في قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلاةٍ وَلا صَوْمٍ وَلا صَدَقَةٍ وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»(١).

كما أرجو أن تكون هذه الدراسة من السعي لنشر سنته، عليه أفضل الصلاة والتسليم، بين المسلمين للعمل بها والاقتداء بسيرته العطرة تنفيذاً لقوله ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ»(٢).

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل، حديث رقم ٦١٧١؛ وكذلك صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، حديث رقم ٦٧١٠؛ واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذُكر عن بني إسرائيل، حديث رقم ٣٤٦١.

مقدمة

إن معرفة سيرة رسول الله ﷺ ليست نافلة من النوافل في حياة المسلم، بل هي فرض من الفروض، إذ نحن مأمورون بطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، واتباع هديه ﷺ في سائر أحواله، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الحشر:٧)، وقال عز وجل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١). وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: **«دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»**(١) وهذا لا يتحقق إلا بمعرفة سيرته، عليه الصلاة والسلام، جملة وتفصيلاً. فسعادة العبد في الدارين معلقة بتتبع هدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يمكنه من الاقتداء به على بصيرة.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، حديث رقم ٧٢٨٨؛ وكذلك صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم ٣٢٥٧؛ واللفظ للبخاري.

وما أجمل ما وصف ابن القيم حال المسلم مع نبيه، عليه أفضل الصلاة والسلام، حيث يقول: «وعلى العبد أن يجعل النبي ﷺ إمامه ومعلمه، وأستاذه، وشيخه وقدوته كما جعله الله نبيَّه ورسوله وهادياً إليه، فيطالع سيرته ومبادئ أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته، ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه»[1].

إن في سيرة المصطفى ﷺ نبراساً لكل مُقتدٍ، ولكل من يرنو لبلوغ مناه في تتبع سيرة الرسول ﷺ في يسر وسهولة ووضوح، منهجاً في هذه الحياة الدنيا، فضلاً عن الثواب المرتجى لمن يحتسب في عمله الاقتداء بسيرة المصطفى، فالأب، والأم، والمربي يجدون في سيرة المصطفى، عليه الصلاة والسلام، دروساً نبوية في التربية، والتعامل مع الآخرين، وكسب قلوب الناس، من خلال حسن الخُلُق، وفنون التعامل مع الآخرين، ومما يزيد هذه الدروس روعة أن البعد التنفيذي فيها والجانب العملي هو الطاغي في العملية التربوية النبوية، فهي ليس مجرد توجيهات عامة، بل وصولاً إلى أدق التفاصيل، ونزولاً لأدنى مستويات التعامل مع المستوى العمري، فالرسول ﷺ داعب صغار الأطفال حتى من خارج بيته الشريف، ففي الحديث الذي

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم الجوزية، تحقيق: إياد بن عبد اللطيف القيسي (الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢٦هـ) ٣/٣٢٠.

يرويه البخاري أن «مَحْمُودِ بْنِ الرَّبِيعِ قَالَ: عَقَلْتُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ مَجَّةً مَجَّهَا فِي وَجْهِي وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ مِنْ دَلْوٍ»[1].

إن هذه الممارسات النبوية، التي وصلت إلينا تتعلم منها الأمة بمختلف مستوياتها العمرية، والعلمية، والاجتماعية الآداب الرفيعة، والأخلاق الحميدة، والعبادة الصحيحة، لذا لا عجب أن يقول بعض السلف: «كنا نُعلّم مغازي النبي ﷺ كما السورة من القرآن»[2]. وكم نحن بحاجة في هذا العصر إلى تعلم سيرة المصطفى ﷺ وعدم الوقوف عند مجرد القراءة فحسب، بل انتقال للتطبيق، وعزم قوي على الممارسة، فالمجتمعات الإسلامية عطشى في وقتنا الحاضر إلى نبراس يُقتدى وطريق يسلك لتحقيق الترابط الأسري المنشود، من خلال التعامل الحسن بين أفراد الأسرة الواحدة ابتداءً، واختتاماً بالمجتمع الكبير، ومروراً بمحيط الأسرة الأوسع من الأقارب وذوي الأرحام.

إن المجتمعات الإسلامية بما تعيشه من متغيرات اجتماعية، واقتصادية متلاحقة يعجز بعضها عن اللحوق بالآخر من سرعتها، بأمس الحاجة إلى وضوح المنهج النبوي في كيفية التعامل الأسري وكيفية تنفيذه من خلال الإطلاع على التوجيهات النبوية، والممارسات العملية الصادرة عن المصطفى ﷺ، ففي العصر الذي نعيشه الآن يلحظ كل مختص تعقد

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب متى يصح سماع الصغير، حديث رقم ٧٧.

(٢) السيرة النبوية، علي محمد الصلابي (بيروت: دار ابن كثير، ١٤٢٨هـ) ٧/١.

العلاقات الاجتماعية، وتزايد الاضطرابات النفسية جراء ذلك، وتتواصل العملية الاجتماعية لتصل بمستوى العلاقة الاجتماعية بين أفراد المجتمع إلى أدنى مستوياها الأخلاقية، وهذا ما يؤكد حتمية السعي لتحقيق المنهج النبوي في التعامل بين أفراد المجتمع، سواء بمستواه الصغير على نطاق الأسرة وما يرتبط بها من علائق قرابية، أم على مستواه الأكبر في الحي ثُم الأكبر في المدينة ثُم الأمة.

إن المتأمل لواقع المجتمعات الإسلامية في جانبها التعاملي ليلحظ التناقض الكبير بين معتقد هذه المجتمعات الإسلامية، والممارسات اليومية، ففي الجانب النظري نجد التوجيهات التي تحث على حسن الخُلُق مع جميع ما حول الإنسان المسلم حتى مع الجمادات، فعلى سبيل المثال، نجد في حديث المصطفى ﷺ المتفق عليه، الذي يقول فيه: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**»[1]، وردت كلمة «**كُلِّهِ**» وهي عامة تشمل كل ما يخطر على البال من تعاملات المسلم مع من حوله، قال ابن حجر عند شرح الحديث أن المعنى: «أنه يتأتى معه - أي الرفق - من الأمور ما لا يتأتى مع ضده»[2]. وبكل حال، فهذا الحديث غيض من فيض من بحر التوجيهات الأخلاقية،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، حديث رقم ٦٠٢٤؛ وصحيح مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، حديث رقم ٥٦٥٦؛ واللفظ للبخاري.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٢٦٥١/٣.

التي يحث عليها الإسلام. إلا أن واقع الممارسات العملية يحكي – وللأسف – خلاف ذلك في غالبه العام، فما المشاكل التي تحصل بين الأسرة الواحدة وبين الأقارب والأرحام إلا نتيجة للابتعاد عن تحقيق هذه التوجيهات النبوية في التعامل مع الآخرين.

إن نسب الطلاق، التي تُنشر بين الفينة والأخرى في المجتمعات الإسلامية لتصيب رؤوس عقلاء الأمة بالدوار، لما تظهره من تصاعد مطرد ومتزايد في نوعيتها، وكذلك في كميتها، وهذه المشكلات الأسرية المنتهية بالطلاق، أو حتى التي لم تنته بالطلاق وراءها ركام من سوء الخُلُق في التعامل بين الزوجين جراء الابتعاد عن الهدي النبوي في التعامل بينهما. ولو كان الأمر يتوقف على مجرد الطلاق فقد يهون – إلى حد ما – ولكن المشكلات الأسرية، وحالات الطلاق، لها تبعاتها الاجتماعية من تشريد للأبناء وتهديدٍ لهم بالانحراف، وضياع للمسؤولية بين الأبوين جراء إلقاء كل طرف التبعة على الآخر. وهناك العديد من الدراسات الميدانية، التي توضح أنه ثمة علاقة قوية بين انحراف الأبناء وتفكك الأسر سواء بطلاق أم بغيره من الأسباب[1]. وهذا ما يجعل الحاجة ماسة لالتزام الخُلُق الإسلامي في التعامل الأسري، وذلك بعد التعرف عليه.

---

(١) جناح الأحداث: المشكلة والسبب، عدنان الدوري (الكويت: ذات السلاسل، ١٤٠٥هـ) ص ٢٤٧.

وحين النظر في العلاقات الأسرية التبادلية بين الأبناء والآباء نجد أنها لا تخلو من وجود خلل بيّن في الممارسات فيما بينهم، فمن جانب قد نجد في المجتمعات الإسلامية جوانب من العقوق من قبل الأبناء تجاه والديهم، كما قد نجد جوانب من القصور في حقوق الأبناء من قبل الوالدين، سواء المادية أو العاطفية، فلا تزال المجتمعات الإسلامية على ما فيها من خيرية عامة تئن من وجود هذه العلاقة المتشنجة بين الأبوين والأبناء، ذكوراً وإناثاً، نتيجة لعدم التعرف على الكيفية التي يكون التعامل الأمثل فيها معهم، فظهر لدينا في المجتمع المسلم مظاهر من سوء التعامل من قبل الآباء، تجاه الأبناء ووجود لبعض التقصير في حقوقهم، مما أنتج لنا نبتة خبيثة من العقوق من قبل الأبناء تجاه الآباء، تتعاظم كلما ابتعد الطرفان عن المسلك النبوي في كيفية التعامل مع الآخر، وهذا يعطي دلالة على أهمية التعرف على الهدي النبوي في التعامل الأسري بين الآباء والأبناء، وصولاً للأسرة المتراحمة والمتعاطفة فيما بينها.

وما من شك أن الناظر في سجلات المحاكم ليعجب من حجم المشكلات التي تحدث بين أفراد الأسرة الواحدة جراء تنازع على إرث، أو أوقاف، أو وصايا، أو خلع، أو غيرها من القضايا، التي لم يخلو أي عصر منها، ولكن وجه الاختلاف بين ما كان يحدث في السابق واللاحق؛ هو التزام الخُلُق النبوي في التعامل معها، وبقدر القرب والبعد بين التزام المسلمين بهذه الأخلاق النبوية تكون المساحة في مواطن الاختلاف والتنازع والشقاق،

فهي الحالقة التي أشار إليها المصطفى ﷺ في الحديث الصحيح الذي يرويه الترمذي، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ**»[1].

وسوء ذات البين هي العداوة والبغضاء فيما بين المسلمين بمختلف مستوياتهم القرابية وعلاقاتهم الاجتماعية، إلا إنها تزداد مرارة حينما تكون بين أفراد العائلة الواحدة، أو أهل القبيلة الواحدة. وهذا دافع آخر لضرورة السعي الحثيث لنشر هدى المصطفى ﷺ في التعامل مع هذه الموضوعات العائلية وكيفية احتوائها لمنع استفحالها أو الوصول بها إلى أروقة المحاكم، فوصولها إلى مجالس القضاء يعني تقطع العلاقات نهائياً، كما قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «ردوّا الخصوم، فإن القضاء يورث الشنآن»[2].

من هذا وذاك كانت هذه الدراسة، التي تهدف إلى التعرف على الهدي النبوي في التعامل الأسري، وما هي أخلاقه ﷺ التي كان يدعو لها، ويحث المسلمين عليها، صباحاً ومساءً، سواء من كتاب الله عز وجل، أم من واقع سيرته العطرة، القولية منها والعملية، فلقد كان وكانت شريعته ﷺ شاملة

---

(١) سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي (الرياض: دار السلام للنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ) كتاب القيامة والرقائق والورع، حديث رقم ٢٥٠٨؛ وذكره الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٢٦٨٠.

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب، ابن الجوزي (الطائف: مكتبة المؤيد، ١٩٨٧م) ص٢٢٤.

للخير كله، متوازنة في تحقيقها لمتطلبات الحياة، وهذا بخلاف الديانات السابقة، فموسى، عليه السلام، قد جاء بالأحكام، وداود امتاز بدعاء الله عز وجل واستشعار حلاوة مناجاته، و«عيسى بعث ليعلم الناس مكارم الأخلاق والزهد في الدنيا، وأما محمد رسول الله ﷺ فقد جاء بكل ذلك: بالأحكام، ودعاء الله، والتوجيه إلى مكارم الأخلاق، والحض على الزهد في الدنيا وزينتها، وكل هذا تجده في القرآن الحكيم لفظاً ومعنى، وفي السيرة المحمدية قدوة وعملاً»[1].

وسيكون التركيز على عرض الجوانب العملية في حياته ﷺ، من خلال مباحث الدراسة لرسم المنهج المحمدي في تكوين قاعدة عريضة من القواعد الأخلاقية للتعامل مع الآخرين في المحيط الأسري.

---

(١) الرسالة المحمدية، السيد سليمان الندوي (جده: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ) ص ١٢٢.

الفصل الأول

الأخلاق: أصولها وتمثلها في الرسول ﷺ

لعل مما يحسن قبل الحديث عن التعامل الأخلاقي للرسول الكـريم ﷺ مع من حوله، التعرف على طبيعة الخُلُق وأسسه، وكيف يُكتسب، والوسائل التي تُعين على التحلي به، فالأخلاق في اللغة جمع خُلُق، والخُلُق اسم لسجية الإنسان وطبيعته التي خلقه الله عليها [1]، ويمكن القول: إنها ما يصدر عـن الإنسان من أفعال من غير فكر ولا روية، باعتبارها جزءاً مـن شخـصيته ومكوناً أساساً من طبيعته التي خلقه الله عز وجل عليها، أو اكتسبها الإنسان بمجاهدة وتعلم ودربة حتى يصير هيئة للإنسان وسمتاً عاماً لـه، وإن خبـت حيناً لسبب ما، أو زادت في الظهور وعُرف الإنسان بها لأسـباب أخـرى كذلك. ومحصلة هذه الأخلاق هي السلوك، التي يقوم بها الإنسان، والأفعال التي يمارسها في مختلف المواقف التي يمر بها في حياته.

وللأخلاق التي يتخلق بها الإنسان صور عديدة جداً، فمنـها الحـسن المحمود، ومنها البغيض المذموم، «فالأخـلاق أوصاف الإنسان التي يعامـل بها غيره، وهي محمودة ومذمومة، فالمحمودة على الإجمال أن تكون مع غيرك

---

(١) لسان العرب، ابن منظور (دار صادر، بدون تاريخ) ٨٦/١٠؛ وكذلك: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس (بيروت: دار إحياء التراث الإسلامي، ١٤٢٢هـ) ص٣١١.

على نفسك فتنصف منها ولا تنصف لها، وعلى التفصيل العفو والحلم والجود والصبر وتحمل الأذى والرحمة والشفقة وقضاء الحوائج والتوادد ولين الجانب ونحو ذلك، والمذموم منها ضد ذلك»[1].

ولهذه الصور من الأخلاق، بنوعيها الحسن المحمود والبغيض المذموم، أصول تنطلق منها، وقد أجمل ابن القيم النوع الحسن المحمود بقوله: «إن حسن الخُلُق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر والعفة والشجاعة والعدل»[2]. فمن كل خُلُق من هذه الأخلاق الأربعة تتولد أخلاق أخرى تابعة له لا تنفك عنه في الغالب.

ومن هذا المنطلق نجد أن خُلُق الصبر خُلُق أساس يجعل صاحبه يتحلى بأخلاق أخرى مثل: الاحتمال وكظم الغيظ وكف الأذى، والحلم، والأناة، والرفق، وعدم الطيش، أو العجلة. أما خُلُق العفة فيحمل صاحبه على: اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وعلى الحياء، ويمنعه من الفحشاء والبخل، والكذب، والغيبة، والنميمة. أما خُلُق الشجاعة فيحمل صاحبه المعروف به على: عزة النفس، والبذل، والحلم؛ ورابع هذه الأخلاق الأساسية هو خُلُق العدل، فهو يحمل صاحبه المتحلي به على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي نقيض هما: الإفراط فيها بشكل مذموم يخرجها عن حقيقتها، أو التفريط فيها، فنجد هذا الخُلُق الأساس يحمله على: خُلُق

---

(١) فتح الباري، ٣/٢٦٥٤.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، مرجع سابق، ٢/٣٨٨.

الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور، كما يحمله على خُلُق الجود والسخاء الذي هو توسط بين خُلُقين مذمومين، وكذلك يحمله على خُلُق الحلم الذي هو وسط بين خُلُقين آخرين مذمومين، هما: الغضب والمهانة.

أما الأخلاق البغيضة المذمومة فمنشؤها أربعة أخلاق أساسية هي: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب، فالخُلُق الأول منها وهو الجهل: يريه الحسن في صورة القبيح والقبيح في صورة الحسن والكمال نقصاً والنقص كمالاً؛ والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضى، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع؛ أما خُلُق الشهوة فيحمل صاحبه على: تحمل الحرص والشح والبخل وعدم العفة، والدناءات كلها؛ وخُلُق الغضب يحمل المتحلي به على: الكبر، والحقد، والحسد، والعدوان، والسفه[1].

ولقد حث الإسلام على مكارم الأخلاق، ولقد كان هذا الوصف هو السمة البارزة، التي أجملها أخو أبي ذر الغفاري، رضي الله عنه، عندما أرسل أخاه ليُعلمه عن خبر هذا النبي، قبل إسلامه، فقال له واصفاً ما شاهده من الرسول ﷺ: «رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأَخْلاقِ»[2]. وصاحب الخلق الحسن هو

---

(١) باختصار من مدارج السالكين، مرجع سابق، ٢/٣٨٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قصة إسلام أبي ذر الغفاري ﷺ، حديث رقم ٣٥٢٢؛ وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر ﷺ، حديث رقم ٦٣٦٢.

من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ فعند البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاقًا»[1]. لذا لا عجب أن نجد هذا الاحتفاء بموضوع الخُلُق الكريم، والتحلي بمحاسن الأخلاق، ومكارمها في الدين الإسلامي.

ولعل أجمع تعريف لحسن الخُلُق هو قول بعض السلف: «حسن الخُلُق بسط الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى»[2]. وهو تعريف جامع لحسن الخُلُق، فبسط الوجه مأخوذ من قول المصطفى ﷺ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»[3]؛ وبذل الندى وهو السخاء، وهو من جملة محاسن الأخلاق بل هو من أعظمها؛ وكف الأذى مأخوذ من حديث الرسول ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[4].

إن مما يميز الأخلاق في الإسلام عدد من الخصائص تجعل من التحلي بها أمراً ليس ميسوراً فحسب، بل مرغوباً فطرة وديانة، ومن ذلك أنها ربانية،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب عبد الله بن مسعود ﷺ، حديث رقم ٣٧٥٩.

(٢) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: عاصم بهجة البيطار (بيروت: دار النفائس، ١٤٠٦هـ) ص٢٦٧.

(٣) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في صنائع المعروف، حديث رقم ١٩٥٦؛ وذكره الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٢٩٠٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، حديث رقم ١٠؛ وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تفاضل الإسلام وأي المسلمون أفضل، حديث رقم ١٦٢.

يقول الله عــز وجــل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء:١٧٤)، فهذه الأخلاق لا تخضع لمقاييس البشر، أو نسبية الزمان أو المكان «فمن تبصر بالأصول العامة للأخلاق في المفاهيم الإسلامية، وتبصر أن الأخلاق الإسلامية مقترنة بالوصايا والأوامر والنواهي الربانية، وتبصر بأن هذه الوصايا والأوامر والنواهي محفوفة بقانون الجــزاء الإلهي بالثواب أو العقاب فإنه لا بد أن يظهر له بجلاء أن الأخلاق الإسلامية هي حقائق في ذاتها، وهي ثابتة ما دام نظام الكون ونظام الحياة ونظام الخير والشر أموراً مستمرة ثابتة، وهي ضمن المفاهيم الإسلامية الصحيحة غير قابلة للتغير والتبدل من شعب إلى شعب، و لا من زمان إلى زمان»[1].

كما أن الأخلاق الإسلامية تتصف بالشمولية، وعــدم الانتقائيــة في التطبيق، فالمســلم يتحلى بالأخلاق ويترجمها سلوكاً مع الجميع، يقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائــدة:٨)، يقــول القرطبي: «دلت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع مــن العــدل عليــه»[2].

---

(١) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (بيروت: مؤسسة الريان، ١٤٢٥هـ) ص١٢٩.

(٢) الجامــع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمــد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٥هـ) ٣/٣٥٧.

فالمسلم ينطلق في تعامله الأخلاقي مع الآخرين من كونه يتعامل مع جنس البشر، الذي كرمه الله، عز وجل، في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠). قال ابن الجوزي في تفسيره «زاد المسير»: «أي فضلناهم، و(كرمنا) أشد مبالغة من (أكرمنا)»[1]. وهذا من المبالغة في التكريم حتى في اختيار اللفظ.

كما تتصف الأخلاق الإسلامية بالواقعية وعدم الجنوح إلى المثالية في التطبيق وذلك أخذاً من قول عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وكذلك من حديث المصطفى ﷺ: «فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[2]؛ وما شرع الله عز وجل الاستغفار إلا لمعالجة خطأ المسلم المتوقع، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»[3]. فمن هذه الواقعية والابتعاد عن المثالية كان تناول الخُلُق الإسلامي في حياة المسلم.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٢٣هـ) ص ٨٢٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، حديث رقم ٧٢٨٨.

(٣) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنب بالاستغفار والتوبة، حديث رقم ٦٩٦٥.

- صفة المصطفى ﷺ الخُلُقية:

ولقد تمثل رسول الله ﷺ في أبهى صورها، وأكمل معانيها، كيف لا، وهو الذي وصفه الحق عز وجل بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤). وتواتر عن الصحابة، رضوان الله عليهم، وصف الرسول ﷺ بحسن الخلق، ومن ذلك حديث أنس بن مالك، رضي الله عنه، الذي وصف فيه الرسول ﷺ وصفاً مجملاً بقوله: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَشْجَعَ النَّاسِ وَأَجْوَدَ النَّاسِ»[١]، ورغم هذا وذاك كان يدعو ربه عز وجل إذا قام في صلاته بأن يحسن خُلُقه، فيحكي ذلك علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه كان ﷺ يقول في صلاته: **«وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاقِ لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلا أَنْتَ»**[٢].

ولقد كان هديه ﷺ في التعامل الأخلاقي مع من حوله معجزة من المعجزات النبوية، «فلقد عاش رسول الله ﷺ بين ظهراني أعدائه من المشركين أكثر من نصف قرن، ثم أكمل مدة حياته يجاوره اليهود والمنافقون، فلم يستطع أولئك أن ينتقدوه بخلق من أخلاقه، وقد بذلوا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الشجاعة في الحرب والجبن، حديث رقم ٢٨٢٠.

(٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامها حديث رقم ١٨١٢.

أمـــوالهم وسفـــكوا دماءهم في حربه وقتـــاله»[1]، وهــــذا يؤكـــد أن أخلاقه مما لم يجدوا فيها مطعناً، ذلك أنه مـــؤيد في خُلُقه من الله عز وجل، فلقد أدبه ربه وأحسن تأديبه، كما جاء في الأثر [2].

إن مما يجد المسلم الصعوبة فيه هو حصر أخلاقه ﷺ ووصف حـــسنها وكمالها، ولكن هذا لا يمنع من الإشارة إلى بعضها وإن لم يستوفها القلـــم، فقد كان ﷺ من أشجع الناس، قال عنه البراء بن عازب، رضي الله عنـــه: «كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ»[3]، وقال عنه أنس بن مالك، رضي الله عنـــه: «كَـــانَ أَشْـــجَعَ النَّاسِ»[4]. ومواقفه ﷺ في المعارك مشهودة، ومنها في معركة أحد، يـــروي ابن هشام واصفاً أحد تلك المواقف بقوله: «فلما أسند رسول اللّـــه ﷺ في الشعب أدركه أبيّ بن خلف وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا. فقال القوم: يا رسول اللّه، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول اللّه ﷺ: **دعوه،**

---

(١) في أخلاقنا كفاية، يحيى بن إبراهيم اليحيـــى (المدينـــة المنـــورة: دار الخـــضيري، ١٤٢٠هـــ) ص ٥.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن حديث «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»: «إنـــه ضـــعيف ولكن معناه صحيح، وإن كان لا يعرف له إسناد ثابت»؛ انظـــر: سلـــسلة الأحاديـــث الضعيفة والموضوعة، الألباني (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩٨هـــ) ج١، حديث رقم ٧٢.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، حديث رقم ٤٦١٦.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الشجاعة في الحرب والجبن، حديث رقم ٢٨٢٠.

فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها منه انتفض انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله، وأبصر ترقوته من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة فطعنه فيها طعنة تدأدأ - تدحرج - منها عن فرسه مراراً»[1].

وكان ﷺ أشد الناس تواضعاً، والتواضع خُلُق كريم يدعو صاحبه المتحلي به إلى عدم الترفع على الآخرين أو الاستعلاء عليهم، لذا كان ﷺ يجيب من دعاه، من غني، أو فقير، أو شريف، أو كان من عامة المسلمين. وكان يحب المساكين، ويشهد جنائزهم، ويعود مرضاهم، لا يُحقر فقيراً.. ومن تواضعه ﷺ أنه كان يركب ما يحتاجه ويتيسر، فقد ركب الفرس، وركب البعير، وركب الحمار، والبغلة، وكان يردف خلفه عبده أو غيره، وكيف لا يفعل ذلك ﷺ وهو القائل: «**مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلا رَفَعَهُ اللَّهُ**»[2]. وكان من وصاياه ﷺ لأمته: «**إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلا يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**»[3]، ومن تواضعه ﷺ، أنه كما قالت السيدة عائشة، رضي الله عنها، لما سئلت: ماذا يصنع في بيته، فقالت،

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد (بيروت: دار الجيل، ١٤١١هـ) ٤/٣٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب استحباب العفو والتواضع، حديث رقم ٦٥٩٢.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، حديث رقم ٧٢١٠.

رضي الله عنها: «كان فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ»[1]، وتفسر السيدة عائشة، رضي الله عنها، مهنة أهله، التي يكون عليها في بيته، فتقول: «يَخيط ثَوْبه، وَيَخْصِف نَعْله، وَيُرَقِّع دَلْوه، وَيَحْلُب شَاته، وَيَخْدُم نَفْسه، مَا كَانَ إلا بَشَرًا مِنْ الْبَشَر»[2]. ومن تواضعه ﷺ أن الأَمَةَ من إماء المدينة «لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ»[3]،

وفي فعله ﷺ قمة التواضع، فالحديث يذكر الْمَرْأَة دُون الرَّجُل، وَالأَمَة دُون الْحُرَّة، وَحَيْثُ عَمَّمَ بِلَفْظِ الإِمَاء أَيّ أَمَة كَانَتْ، حَتَّى لَوْ كَانَتْ حَاجَتهَا خَارِج الْمَدِينَة وَالْتَمَسَتْ مِنْهُ مُسَاعَدَتَهَا فِي تِلْكَ الْحَاجَة عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا دَالّ عَلَى مَزِيد تَوَاضُعه وَبَرَاءَته مِنْ جَمِيع أَنْوَاع الْكِبْر ﷺ[4]، وهل يفعل ذلك إلا الكُمَّلُ من الناس؟

وكان ﷺ من أسخى الناس، وأكرمهم، وأجودهم، لا يردُ سائلاً، ولا يتكاثر شيئاً أعطاه، بل يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ففي الحديث أنه ﷺ قال: **«لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا لَسَرَّنِي أَنْ لا تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلاثُ لَيَالٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ إِلا شَيْئًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ»**[5]. ومما عُرف عنه ﷺ أنه

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله، حديث رقم ٦٠٣٩.
(٢) فتح الباري، ٣/٢٦٥٦.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الكبر، حديث رقم ٦٠٧٢.
(٤) فتح الباري، الجزء٣، ص ٢٦٦٨.
(٥) صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون، باب أداء الدين، حديث رقم ٢٣٨٩؛ وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة، حديث رقم ٢٣٠٤. واللفظ للبخاري.

مَا سُئِلَ «عَلَى الإِسْلامِ شَيْئًا إِلا أَعْطَاهُ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لا يَخْشَى الْفَاقَةَ»[1]. وتصفه السيدة خديجة، رضي الله عنها، قبل مبعثه قائلة: «إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»[2].

ومن مظاهر جوده ﷺ أن الأعراب تعلقت به في مرجعه من غزوة حنين، وضيقوا عليه ليعطيهم، حتى أنهم أخذوا رداءه ﷺ، فقال لهم ﷺ: **«أَعْطُونِي رِدَائِي، فَلَوْ كَانَ عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلا كَذُوبًا وَلا جَبَانًا»**[3].

كما كان ﷺ من أصبر الناس، بل هو إمام الصابرين، فعلى الرغم من ما مرّ عليه ﷺ من محن وشدائد حين تبليغه كلمة الله، فلم يتبرم أو يتضجر يوماً من الأيام، بل كان التفاؤل حاديه، ولقد صبر، عليه الصلاة والسلام، صبراً جميلاً، مصداقاً، وامتثالاً لقول الحق: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ (المعارج:٥). والصبر الجميل هو: «الصبر الذي لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله»[4]. ولقد كانت الشدائد تتوالى عليه ﷺ، وما تزيده إلا ثباتاً

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في سخائه ﷺ، حديث رقم ٦٠٢٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، حديث رقم ٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان رسول الله ﷺ يعطي، رقم ٣١٤٨.

(٤) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني (بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ) ص١٨٢٣.

وصبراً، فمن اليتم إلى فقد جده كافله بعد والديه، ثُم موت عمه أبي طالب، وبعد ذلك وفاة السيدة خديجة، رضي الله عنها، وهي التي كانت تعينه وتصبره، ثُم فقده لجميع أولاده عدا، السيدة فاطمة، رضي الله عنها، فكان صبره صبراً جميلاً، وما زاد أن قال، عليه الصلاة والسلام، عند وفاة ابنه إبراهيم: «**إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلا نَقُولُ إلا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[1].

ثُم فقد عمه حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه، في وقت كان أشد ما تكون الحاجة إليه، لذا قال عند استشهاده: «**لن أُصاب بمثلك أبداً**»[2].

ومن الصور المشرقة لصبره ﷺ، صبره على الفقر، على الرغم من أنه كان يمكنه أن يكون أغنى أهل الأرض، فعن السيدة عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: «إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلالِ ثُمَّ الْهِلالِ ثَلاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ، فَقُلْتُ: يَا خَالَةُ، مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الأَسْوَدَانِ، التَّمْرُ وَالْمَاءُ»[3].

كما كان ﷺ من أرحم الناس وأشفقهم، فهو رحمة من الله للعالمين، ويقول عنه عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ إنا بك لمحزونون، رقم ١٣٠٣.

(٢) السيرة النبوية، لبن هشام، ٤/٤٥.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب فضل الهبة، حديث رقم ٢٥٦٧؛ وصحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم ٧٤٥٢.

ويصفه الحق بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨)، وقصته ﷺ مع قومه من قريش حينما كذبوه، فذهب إلى الطائف لعله يجد من يتلقى دعوته وينصره ليبلغ كلمة الله، ولكنهم خذلوه وأغروا به صبيانهم وخدمهم، يرمونه بالحجارة حتى أدميت قدماه، فجاءه جبريل، عليه السلام، وهو عائد إلى مكة، قائلاً له: «**إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[١]. وثبت عنه ﷺ أنه يتلمس اليسر في الأمور، فعن السيدة عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: «مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا»[٢]. بل بلغت رحمته ﷺ الحيوان، فثبت عنه، أنه أوصى بالرحمة حتى للحيوان، فيقول ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ**

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، حديث رقم ٣٢٣١؛ وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي رسول الله ﷺ، رقم ٤٦٥٣. واللفظ للبخاري.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لله عز وجل، حديث رقم ٦٧٨٦؛ وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للإثم، حديث رقم ٦٠٤٥.

شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[1]. وأمر من يصلي بالناس أن يُخفف عليهم؛ لأن فيهم الضعيف والكبير، فقال ﷺ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ مِنْهُمْ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالْكَبِيرَ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ»[2].

وكان ﷺ من أحلم الناس، «والحلم ضبط النفس عند وجود السبب المحرك لها، فلا يندفع الإنسان، بل يتحمل ويحلم ويعفو.. ولا يملك الحلم إلا من استطاع أن يضبط نفسه ويهذبها»[3]، ومن يكون كذلك إلا رسول الله ﷺ، فكان لا ينتقم لنفسه، ولا يغضب لها، إلا أن تُنتهك حرمات الله، فيكون لله ينتقم، ومن صور حلمه ﷺ وضبطه لنفسه موقفه مع بعض الأعراب؛ يصف أنس بن مالك، رضي الله عنه، الموقف قائلاً: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً، قَالَ أَنَسٌ: فَنَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»[4]،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وحد الشفرة، حديث رقم ٥٠٥٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب إذا صلى لنفسه فليطول ما يشاء، حديث رقم ٧٠٣.

(٣) الشمائل المحمدية والأخلاق النبوية، محمد بن عبد الله الطوالة (الرياض: دار الكتاب والسنة للنشر الدولي، ١٤٢٨هـ) ص٤٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك، حديث رقم ٦٠٨٨.

قال ابن حجر تعليقاً على الحديث: «وفي الحديث بيان حلمه ﷺ وصبره على الأذى في النفس والمال والتجاوُز على جفاء من يُريد تألفه على الإسلام، وليتأسى به الوُلاة بعده في خُلُقه الجميل من الصفح والإغضاء والدفع بالتي هي أحسن»[1].

وأثنى ﷺ على من يتحلى بهذا الخُلُق، وهو الحلم فيقول للأشج، أشج بن عبد القيس، رضي الله عنه: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ، وَالأَنَاةُ**»[2]. وذكره ﷺ لهاتين الخصلتين في معرض المدح، فالمحب لهما الله عز وجل.

وكان ﷺ من أشد الناس وفاءً، وأكثرهم حفظاً للعهد، فلا يخون، ولا يغدر، ولا يخلف وعد، وعرف بهذا حتى قبل مبعثه، فلقد وصفه أبو سفيان عند هرقل، في بدء مبعثه ﷺ بأنه «يأمرهم بالصلاة، والصدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة»[3]. ومن صور وفائه حفظه لعهد السيدة خديجة بنت خويلد، زوجته الأولى، رضي الله عنها، ومن ذلك أنه كان ﷺ يبش، وترتاح نفسه لمن يُذكِّرهُ بها، ومن ذلك ماروته السيدة عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: «جَاءَتْ عَجُوز إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **كَيْفَ أَنْتُمْ**،

---

(١) فتح الباري، ٢٦٧٥/٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان بالله تعالى والإيمان برسوله، حديث رقم ١١٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الشهادات باب من أمر بإنجاز الوعد، حديث رقم ٢٦٨١.

كَيْف حَالكُمْ، كَيْف كُنْتُمْ بَعْدنَا؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُـول اللَّه. فَلَمَّا خَرَجَتْ قُلْت: يَا رَسُول اللَّه، تُقْبِل عَلَى هَـذِهِ الْعَجُـوز هَـذَا الإِقْبَال؟ فَقَالَ: **يَا عَائِشَة، إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَان خَدِيجَة، وَإِنَّ حُسْن الْعَهْد مِنْ الإِيمَان**»[1].

وهذا التعاهد منه ﷺ لصويحبات السيدة خديجة، هو ما جعل عائـشة بنت الصديق، رضي الله عنها، تقول: «مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَة مَا غِرْتُ عَلَـى خَدِيجَةَ، وَلَقَدْ هَلَكَتْ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي بِثَلاثِ سِنِينَ، لِمَا كُنْـتُ أَسْـمَعُهُ يَذْكُرُهَا، وَلَقَدْ أَمَرَهُ رَبُّهُ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّة مِنْ قَصَب، وَإِنْ كَـانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ ثُمَّ يُهْدِي فِي خُلَّتِهَا مِنْهَا»[2].

وكما كان ﷺ ملتزماً بالوفاء في دائرة المحيط الصغير، الزوجة والأسرة، فهو أشد وفاء في أمور أعظم، ومنها الحرب والصلح والمعاهدات، ومن ذلك ما كان من وفائه مع قريش في صلـح الحديبية لما جـاءه أبو بـصير ﷺ، فاراً بدينه، وكان من شروط الصلح أن من جاء من المشركين إلى المسلمين ردوه إليهم، فلما بلغ أبو بصير ﷺ، رسول الله ﷺ جاء في طلبـه رجـلان منهم. فقالوا له ﷺ: العهـد الذي جعلتـه بيننا. فدفعه إليهم، وقـال ﷺ: «**يَا أَبَا بَصِير، إِنَّ هَؤُلاءِ الْقَوْم صَالَحُونَا عَلَى مَا عَلِمْت، وَإِنَّـا لا نَغْـدِر، فَالْحَقْ بِقَوْمِك**. فَقَالَ: أَتَرُدُّنِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونِي عَنْ دِينِي وَيُعَذِّبُونَنِي؟

---

(١) فتح الباري، الجزء ٣، ص ٢٦٤٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن العهد من الإيمان، حديث رقم ٦٠٠٤.

قَالَ: اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّه جَاعِلٌ لَكَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا»[1]. فالموقف كان صعباً جداً، وهو أن يُرد مسلم إلى الكفار، وقد يفتن عن دينه، ولكنه العهد والوفاء به.

ومن صفاته ﷺ الخُلقية أنه كان أكثر الناس تبسماً، فيصفه أحد الصحابة ﷺ بقوله: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»[2]، وكان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً، ففي الحديث أن بعض الصحابة، رضوان الله عليهم، قالوا له ﷺ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا، قَالَ: إِنِّي لا أَقُولُ إِلا حَقًّا»[3]. وكان من السماحة أنه يرى اللعب المباح فلا ينكره، فعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: «بَيْنَا الْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِحِرَابِهِمْ دَخَلَ عُمَرُ فَأَهْوَى إِلَى الْحَصَى فَحَصَبَهُمْ بِهَا فَقَالَ: دَعْهُمْ يَا عُمَرُ»[4]، ولم يكتف ﷺ بهذا، بل جعل زوجه تنظر إليهم، فعن السيدة عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى

---

(١) فتح الباري، ٢/١٨٥٣.

(٢) سنن الترمذي، باب المناقب، باب في بشاشة النبي ﷺ، حديث رقم ٣٦٤١؛ ومسند الإمام أحمد، مسند الشاميين، حديث عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي، حديث رقم

(٣) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المزاح، حديث رقم ١٩٩٠.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب اللهو بالحراب، حديث رقم ٢٩٠١؛ وصحيح مسلم، كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في اللهو الذي لا معصية في، حديث رقم ٢٠٦٩، واللفظ للبخاري.

الْحَبَشَةِ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ، حَتَّى أَكُونَ أَنَا الَّتِي أَسْأَمُ، فَاقْدُرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ الْحَرِيصَةِ عَلَى اللَّهْوِ»[1].

ودخل عليه أبو بكر، رضي الله عنه، في يوم عيد، وبين يديه جاريتين تغنيان، وحاول، رضي الله عنه، أن يوقفها فمنعه الرسول ﷺ، وتصف القصة السيدة عائشة، رضي الله عنها، قائلة: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا جَارِيَتَانِ فِي أَيَّامِ مِنًى تُغَنِّيَانِ وَتُدَفِّفَانِ وَتَضْرِبَانِ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَغَشٍّ بِثَوْبِهِ، فَانْتَهَرَهُمَا أَبُو بَكْرٍ، فَكَشَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ وَجْهِهِ فَقَالَ: **دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّهَا أَيَّامُ عِيدٍ،** وَتِلْكَ الْأَيَّامُ أَيَّامُ مِنًى»[2].

ومن كمال خُلُقه ﷺ أنه لم يكن فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا سباباً، ولا لعاناً. وإذا عاتب مما لا بد له من عتاب فلا يكون إلا بلطف، فعن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: «لَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ ﷺ سَبَّابًا، وَلا فَحَّاشًا، وَلا لَعَّانًا، كَانَ يَقُولُ لأَحَدِنَا عِنْدَ الْمَعْتَبَةِ: **مَا لَهُ، تَرِبَ جَبِينُهُ**»[3]. وتربت يداك: أي افتقرت وصارت على التّراب، وهي من الألفاظ التي تطلقها العرب عند الزّجر ولا يراد بها ظاهرها.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب نظر المرأة إلى الحبش ونحوهم من غير ريبة، حديث رقم ٥٢٣٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قصة الحبش حديث رقم ٣٥٢٩. وصحيح مسلم، كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في اللهو الذي لا معصية فيه، حديث رقم ٢٠٦٣، واللفظ للبخاري.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً، حديث رقم ٦٠٢٩.

ويجلي الصورة أكثر عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، عن جانب من جوانب شخصيته ﷺ فيقول: «إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، قَالَ فِي التَّوْرَاةِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلا غَلِيظٍ وَلا سَخَّابٍ بِالأَسْوَاقِ، وَلا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ»[1].

لأجل ذلك كله وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤) والخُلق العظيم هنا، كما ذكر بعض المفسرين، أنه الطبع الكريم، وحقيقته ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب، فسمي خُلُقاً؛ لأنه يصير كالخلقة في صاحبه[2].

- هل يمكن تغيير الأخلاق إلى الأفضل؟:

لقد قال البعض: إن أخلاق الإنسان جبلية لا يمكن تغييرها، بل الإنسان مفطور على خُلُق جبله الله عليه ولا يمكن اكتساب غير هذه الأخلاق، التي جبله الله عليها، لما ورد في الأثر عن عبد الله بن مسعود ﷺ قوله: «إِنَّ اللهَ قَسَمَ أَخْلاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ أَرْزَاقَكُمْ»[3]، وبعضهم يعدُ هذا الحديث في حكم

---

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، حديث رقم ٤٨٣٨.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، مرجع سابق، ص١٤٦٠.

(٣) فتح الباري، ٢٦٥٥/٣.

المرفوع إلى النبي ﷺ[1]. ولكن هذا الرأي مردود لوجوه عدة. أولها: حديث الرسول ﷺ لأشج بن عبد القيس ﷺ الذي قال فيه: «**إنَّ فِيكَ خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قُلْتُ: مَا هُمَا؟ قَالَ: الْحِلْمُ وَالْحَيَاءُ، قُلْتُ: أَقَدِيمًا كَانَ فِيَّ أَمْ حَدِيثًا؟ قَالَ: بَلْ قَدِيمًا، قُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا**»[2]. وكما ذكر ابن حجر: «إن ترديده السؤال وتقريره عليه يُشعر بأن في الخُلُق مَا هُوَ جِبِلِّيٌّ، وَمَا هُوَ مُكْتَسَب»[3].

ومما يدل على إمكانية تغيير الخُلُق قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:١١).

ومما يدل كذلك على إمكانية الوصول إلى الخلق الحسن، دعاء الرسول ﷺ وهو قوله: «**وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاقِ لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إلا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إلا أَنْتَ**»[4]. فلو لم يكن في الأخلاق ما يُكتسب، لكان في الدعاء اعتداء، وحاشاه ذلك ﷺ. إضافة

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ) الجزء ٦، حديث رقم ٢٧١٤.

(٢) الأدب المفرد، حديث رقم٥٨٤، وصححه الألباني في تعليقه على الأدب المفرد، ص٢٠٠.

(٣) فتح الباري، الجزء ٣، ص٢٦٥٥.

(٤) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، حديث رقم ١٨١٢.

إلى الحديث الآخر، وهو قوله ﷺ: «وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ»[1]. والصبر خُلُق من الأخلاق، فهو يكتسب بالمجاهدة والتدرب.

وبالجملة يمكن القول: إن الخُلُق وإن كان بعضه جبلياً في الإنسان، إلا أن هناك أخلاقاً تكتسب بالتعلم والتدرب، وسؤال الله عز وجل إياها، وإلا لما كان للمواعظ والوصايا، والوعد والوعيد، كبير فائدة إذا كان الإنسان مجبولاً على السيئ من هذه الأخلاق، وكما ينتقل الإنسان من الأخلاق السيئة إلى الأخلاق الحسنة فقد يحصل العكس كذلك، وهو الانتقال من الأخلاق الحسنة إلى الأخلاق السيئة، وفي هذا انتكاس له عدة أسباب، ومن ذلك: الهموم التي قد تعتري الإنسان حيناً من الدهر، أو الفقر وما يستتبعه من ذلة، أو الغنى وما يستتبعه من بطر وتيه، أو الإصابة ببعض الأمراض، أو كبر السن وما يلحقه من ضيق في العطن، وعدم تحمل للآخرين، وتبرم منهم[2].

ولئن كان الانتقال من الحسن إلى السيئ ممكناً، فكذلك الانتقال من الأخلاق المذمومة إلى الأخلاق الحسنة ممكناً، ولله الحمد، وهذا ما يدفع الإنسان المسلم إلى تحري الخُلُق الحسن الذي كان يتحلى به نبيه ﷺ ويتلمس خطاه في تطبيقه بما يستطيعه من جهد، حاديه في ذلك قول الحق: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:٦٩).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، حديث رقم ٢٤٢٤.

(٢) مختصراً من كتاب: أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي (بيروت: المكتبة الثقافية، بدون تاريخ) ص٢٣٨.

- العوامل التي تساعد على اكتساب الأخلاق الحميدة:

إن مما يُعين - بعد توفيق الله عز وجل- على اكتساب الأخلاق الكريمة، التي كان نبينا محمد ﷺ يتصف بها، ويحثُ على الالتزام بها، والسعي الحثيث لتحصيلها وتطبيقها في سائر حياته، عدد من الأمور، منها:

- استشعار أن هذه الأخلاق من الدين، وأن الالتزام بها عبادة يُثاب عليها العبد إذا احتسب الأجر من الله عز وجل، والعبادة هنا بمفهومها الشامل، كما عرفها ابن تيمية، رحمه الله، حين قال: إن العبادة: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[١]. ومن هنا فأنه بقدر تحصيل المسلم لهذه الأخلاق، يكون قدر اكتمال إيمانه، «ولو تحرينا النصوص القرآنية والنبوية لوجدنا الإيمان قرين الخُلُق الفاضل والسلوك الصالح، ووجدنا نقيض الإيمان سوء الخُلُق»[٢].

- تصور أجر الالتزام بهذه الأخلاق الكريمة، وإن المؤمن ليبلغ بالتزامه بحسن الخُلُق درجة عالية، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»[٣].

---

(١) العبودية، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ) ص ٣٨.

(٢) أخلاقنا، عابد توفيق زين العابدين (طنطا: دار البشير للثقافة والعلوم، ١٩٩٧م) ص ١٢.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب حسن الخُلُق، حديث رقم ٤٧٩٨؛ وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم ١٩٢٨.

- التعرف على سيرة الرسول ﷺ، وهديه وسلوكه، وأخلاقه، التي كان يتحلى بها، وذلك بقراءة كتب السيرة النبوية، وكتب الشمائل، وصفاته ﷺ الخُلُقية، وطريقة تعامله مع الآخرين، والتيقن أن هذا التعرف تديناً لله عز وجل، لأجل الاقتداء به ﷺ.

- وبعد التعرف على سيرته ﷺ، وشمائله، وأخلاقه، السعي لتطبيق ما يستطيع الإنسان تطبيقه، ولا يتقال المسلم خُلُقاً من الأخلاق في سبيل تحصيله، ثُم العمل به، وليعلم إمكانية ذلك بالمحاولة ثُم بالدربة حتى تكون خُلُقاً لازماً له، ففي الحديث: «**وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنْ الصَّبْرِ**»[1].

- وإن مما يُعين على امتثال هذه الأخلاق الفاضلة والتمسك بأهدابها، التزام العبادات القولية والعملية، وعلى رأسها الصلاة، ففي الحديث قوله ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلاةُ نُورٌ**»[2]، وقال النووي شرحاً للحديث: «**وَالصَّلاة نُور**»، فَمَعْنَاهُ: أَنَّهَا تَمْنَع مِنْ الْمَعَاصِي، وَتَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاء وَالْمُنْكَر، وَتَهْدِي إِلَى

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة باب فضل التعفف والصبر، حديث رقم ٢٤٢٤.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، حديث رقم ٥٣٤.

الصَّوَاب، كَمَا أنَّ النُّور يُستَضَاء بِهِ»، ومع هذا دعاء الله عز وجل أن يهديه لأحسن الأخلاق ويبعده عن سيئها، فلقد كان من دعاء الرسول ﷺ قوله: «**وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاقِ لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلا أَنْتَ**»[1].

- وأخيراً، مما يعين على اكتساب هذه الأخلاق، والتعرف على حقيقة النفس في تطبيقها من عدمه، مخالطة الناس، والتعامل معهم، فلن يتبين تواضع الإنسان، وصبره، وحلمه، ورحمته، وغيرها من الأخلاق، إلا بمخالطة الناس وتحمل أذاهم، وذلك تطبيقاً لحديث المصطفى ﷺ الذي يقول فيه: «**الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ مُخَالِطًا النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»[2].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل، حديث رقم ١٨١٢.

(٢) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في فضل المخالطة مع الصبر على أذى الناس، حديث رقم ٢٥٠٧، وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٥٢٧.

الفصل الثاني

الحقوق والواجبات كما جاءت في الكتاب والسنة وتطبيقاتها في حياة المصطفى ﷺ

إن المتأمل في سيرة المصطفى ﷺ، يستطيع أن يرى بوضوح الممارسات الأخلاقية الراقية، في كل تعاملاته ﷺ مع كل من حوله بشكل عـــام، وفي محيط أسرته بشكل خاص، وهي في واقع الحال ترجمة عملية وممارسة حقيقية على أرض الواقع للقيم الأخلاقية، التي دعا لها ﷺ طوال بعثته.

ويقصد بكلمة (الحق) في عرف الفقـــهاء: «ما ثبت في الشرع للإنسان أو لله تعالى على الغير، أي هو كل شيء مكنت الشريعة الإنسان منه وسلطته عليه.. ومن هنا فالحقوق مصدرها التشريع الإلهي أو التي سنها رسول الله ﷺ أو التي لا تتعارض مع نص شرعي، وعلى ذلك فالحقوق بهذا المفهوم هي التي فيها صلاح البشر جميعًا في إطارها العام وبالمعنى الحقيقي»[1].

وبعبارة أخرى، يمكن القول: إنها تلكم الأمور الثابتة الواجبـــة الوفـــاء للطرف الآخر، الذي يتعامل معه المسلم في حياته اليومية والتي وجَّه إليهـــا الدين الحنيف لممارستها سلوكاً وفعلاً وقولاً وعملاً تحقيقًا لأهداف الحيـــاة وفق التصور الإسلامي.

---

(١) حقوق الإنسان في عصر النبوة، محمد بن أحمد الصالح، ضمن (حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي)، (الرياض: أكاديمية نـــايف العربيـــة للعلـــوم الأمنية، ١٤٢٢هـــ) ٢٣/١.

- الأسس التي تقوم عليها الأخلاق في الإسلام:

وانطلاقاً مما ذكر، واستقراءً من عموم أقواله ﷺ وممارساته يمكن رصد عدد من الأسس، التي تقوم عليها تلك الجوانب الأخلاقية في تعاملاتـــه ﷺ، ومن ذلك:

- الإنسان مخلوق مكرم، ومكانته محترمة في الإسلام:

ولقد أسجد الله ملائكته للإنسان حين خلقه، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ...﴾ (ص:٧١-٧٣)، وهذا السجود سجود إكرام وإعظام واحترام، كما ذكـــر المفـــسرون[1].

وجنس الإنسان مكرم، وله منـــزلة خاصة بين مخلوقات الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإســـراء: ٧٠)، ولقد كرم الله عز وجل هذا المخلوق البشري على كثير ممن خلق وفـــضله على كثير منهم. كرمه بهيئته، وتسويته، وفطرتـــه، وخلافتـــه في الأرض، وبتسخير الكون له، وكرمه بإعلان ذلك التكريم وتخليده في كتابه العزيـــز، كما خص الله عز وجل الإنسان بميزة جعلته من أشرف المخلوقات، وهـــي العقل.. وإلى جانب ذلك، فالإنسان يمتاز بما اختص به من تركيب جسماني

---

(١) تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ص ١١٤٩.

خاص يسهل له القيام بمختلف الأعمال، التي يمارسها كالاعتدال والاستواء، ذلـــك أن الله خلق كل شيء منكبًا على وجهه وخلق الإنسان مستويًا [1].

ومن هنا، فجنس الإنسان مكرم وله منـــزلته المحترمة، ولـــه كرامتـــه المصونة المعتبرة، والفئات الأسرية لها حق خاص في هذا التكريم، ومما يزيد في تكريم هذه الفئات الأسرية، وشائج القربى، يقول الله عز وجـــل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١). قال ابن كثير: «أي كما يقال: أسألك بالله وبالرحم. وقال الضحاك: واتقوا الله الذي به تعاقدون وتعاهدون، واتقوا الأرحـــام أن تقطعوها ولكن بروها، وصلوها»[2].

- المجتمع المسلم مجتمع متراحم متماسك:

وهو كذلك مجتمع متوادّ متعاطف متكاتف متعـــاون: قـــال تعـــالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ (الفتح:٢٩)، ويصف الرسول ﷺ المؤمنين بأنهم كالجسد الواحد، وذلـــك فيمـــا رواه النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قـــال: **«تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَـــاطُفِهِمْ كَمَثَـــلِ الْجَـــسَدِ إِذَا اشْتَـــكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»**[3].

---

(١) المبادئ الاجتماعية في الإسلام، محمد عبد المتجلي، رابطة العالم الإسلامي، مكـــة المكرمة، سلسلة دعوة الحق، العدد ٨٤، ١٤١٩هـــ، ص ٨٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ص ٢٩٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم ٦٠١١.

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِه**»[1]، وذكر جرير بن عبد الله ﷺ قول الرسول ﷺ: «**لا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لا يَرْحَمُ النَّاسَ**»[2].

ومن هذا الأس، الذي يحث على التراحم والرحمة، تقوم كثير من العلاقات الأسرية في المجتمع المسلم، حيث الالتزام بتعليمات دينهم الحنيف الحاثة على التراحم والتواد. فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ سُئل: أي العمل أفضل؟ قال: «**أفضل العمل أن تُدخل على أخيك المؤمن سروراً، أو تقضي عنه ديناً، أو تطعمه خبزاً**»[3].

- إن جزاء الإحسان في الإسلام الإحسان:

قال الله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (النحل: ٣٠)، وقال عز من قائل: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ (الرحمن: ٦٠)، أي هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق، ونفع

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم ١٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن، حديث رقم ٧٣٧٦.

(٣) الترغيب والترهيب، المنذري، تحقيق: مصطفى عمارة (بيروت: المكتبة العصرية، بدون تاريخ) ١١٧/٣.

عبيده، إلا أن يحسن خالقه إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير والنعيم والعيش السليم[1]؟

وبعد، فهذه أبرز الأسس التي تقوم عليها التعاملات الأخلاقية في السيرة النبوية، ومنها تنطلق الممارسات الراقية التي كان رسول الله ﷺ يتعامل بها مع من حوله من أفراد أسرته ومن في حكمهم.

وتسهيلاً للعملية التطبيقية لممارسة الجانب الأخلاقي في التعاملات الأسرية، ولتحقيق هدف من أهداف هذا الكتاب وهو الاقتداء بالرسول ﷺ، سيكون الحديث في المباحث الآتية، عن حقوق كل فئة أسرية كان للرسول ﷺ قد تعامل مباشر معها، وسيتم عرض الجانب النظري والتأكيد القولي له ﷺ، من خلال أحاديثه ﷺ، وأفعاله، مع التسليم أن حثه، عليه الصلاة والسلام، لأي فضيلة من الفضائل، أو لأي فعل محمود يعني فعله من قبله ﷺ، حتى ولو لم ترد إلينا الحوادث العملية، أو الروايات الفعلية لممارساته ﷺ.. فعندما يأمر ﷺ بأي فضيلة، أو فعل «فلا بد وأنه كان ملتزماً به وفاعلاً له، فما كان ﷺ ليأمر بشيء، ثُم لا يفعله»[2]. ولا يمكن أن يتصور ذلك وهو يتلو قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ (الصف: ٢-٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٣هـ) ص٨٣١.

(٢) من معين الشمائل، صالح أحمد الشامي (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١٨هـ) ص٦.

١- حقوق الوالدين، من الكتاب والسنة.. وكيف تعامل الرسول ﷺ معها:

تشكل حقوق الوالدين في الرسالة الإسلامية بكل ما يرتبط بها من أمور تابعة لها، أو مترتبة عليها قضية إنسانية مهمة، بل جعلت منها محوراً رئيساً وأساساً متيناً، في العلاقات البينية في الأسرة المسلمة، وعدهما من أفضل الأعمال التي يقوم بها المسلم بعد عبادة الله عز وجل، فقال عز من قائل في محكم كتابه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء:٢٣). وفي المقابل اعتبر عقوق الوالدين، والإساءة إليهما، كبيرة من أكبر الكبائر، بل قرنها مع الإشراك بالله وقتل النفس، ورتب عليها أشد الجزاء ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قَالَ: «**أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ، أَوْ قَالَ: وَشَهَادَةُ الزُّورِ**»[١].

ولا ينكر أحد فضل الوالدين على أولادهما، فالوالدان سبب وجود الولد، ولهما عليه حق كبير جداً، فقد حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً، ثم بعد ذلك حضانة ورضاعاً لمدة سنتين مع التعب والعناء والصعوبة، كما أشار

(١) صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله ومن أحياها، حديث رقم ٦٨٧١.

الله عز وجل إلى ذلك في قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الأحقاف:١٥)، ثم رباه صغيراً، وتعبت هي ووالده من أجل راحته، وسهرا من أجل منامه، والأب خلال ذلك، يسعى لعيش الولد وجمع قوته من حين الصغر حتى يقوم بنفسه، لذا فحق الوالدين عظيم، ومن ذلك برهما، والإحسان إليهما قولاً وفعلاً، بالمال والبدن، وامتثال أمرهما في غير معصية الله.

وتأكيداً لحقهما جعل الله - عز وجل - شكره قريناً لشكر الوالدين، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ (لقمان:١٤)، وفي جعل الشكر لهما مقترناً بالشكر لله دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد وأكبرها وأشدها وجوباً[١]. وعكس ذلك فقد جعل الله عز وجل الشرك قرين العقوق لهما، فلقد ذُكرت الكبائر عند رسول الله، فقال ﷺ: **«أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ، أَوْ قَالَ: وَشَهَادَةُ الزُّورِ»**[٢].

---

(١) فتح القدير، الشوكاني، ص ١٣٧٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله ومن أحياها، حديث رقم ٦٨٧١.

ولقد نهى الله عز وجل عن نهرهما بأدنى الكلمات، وهي (أُفّ)، في قوله عز وجل: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء:٢٣). ونقل السيوطي عن الديلمي أن الحسن بن علي، رضي الله عنهما، قال: «لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من (أف) لحرمّه»[١]. ولقد أتى برُّ الوالدين في المرتبة الثانية بعد الصلاة، في محبة الله، لما رواه ابن مسعود ﷺ قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا**، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ، قَالَ: **ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ**، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ، قَالَ: **الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»[٢].

والوالدان هما مفتاح الجنة للابن، فببرهما يدخل الجنة وبخاصة من أدرك أبويه عند الكبر، لما أخرجه مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ**، قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا، ثُمَّ لَمْ يَدْخُلْ الْجَنَّةَ**»[٣]. ولقد

---

(١) الدر المنثور في التفسير المأثور، السيوطي (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ) ٢٥٨/٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾، حديث رقم ٥٩٧٠؛ وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، حديث رقم ٢٥٢؛ واللفظ للبخاري.

(٣) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب رغم أنفه من أدرك أبويه عند الكبر ولم يدخلاه الجنة، حديث رقم ٦٥١١.

قدَّمَ الرسول ﷺ برهما على الجهاد في سبيل الله، الذي هو ذروة سنام الإسلام، فعن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ: أَحَيٌّ وَالِدَاكَ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»[1].

ثم جعل الله تعالى رضاه في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما، قال رسول الله ﷺ: «رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد»[2]، بل جعل للوالد حرية التصرف في مال الابن أخذاً من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَالاً وَوَلَدًا وَإِنَّ أَبِي يُرِيدُ أَنْ يَجْتَاحَ مَالِي، فَقَالَ: أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيكَ»[3]. قال الترمذي في شرح الحديث: «والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم قالوا: إن يد الوالد مبسوطة في مال ولده، يأخذ ما شاء، وقال بعضهم: لا يأخذ من ماله إلا عند الحاجة»[4].

ولقد بيَّن الرسول ﷺ أن برّ الوالدين سبب لإطالة العمر وزيادة الرزق، أخرج أحمد في المسند عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد بإذن الأبوين، حديث رقم ٣٠٠٤؛ وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب بر الوالدين أنهما أحق به، حديث رقم ٦٥٠٤.

(٢) الأدب المفرد، البخاري، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني (الجبيل: دار الصديق، ١٤٢١هـ). باب قول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾ حديث رقم ٢.

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، حديث رقم ٢٢٩١، وذكره الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ١٤٩٨

(٤) سنن الترمذي، كتاب الأحكام، باب ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده، رقم ١٣٥٨.

يُمَدَّ لَهُ فِي عُمْرِهِ وَأَنْ يُزَادَ لَهُ فِي رِزْقِهِ فَلْيَبَرَّ وَالِدَيْهِ وَلْيَصِلْ رَحِمَــهُ»[1]، ومهما بذل الإنسان من عمل فلن يجزي والده إلا أن يجده مملوكاً فيــشتريه ويعتقه كما أخـــبر بذلك الرســـول ﷺ حيث قال: «**لا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إِلا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ**»[2]. من هـــذا الحديث، فجزاء الوالد لا يكون إلا أن يجده الولد مملوكاً ويشتريه ليعتقه. ولكن ونحـــن في هـــذا العصر الذي لا يوجد فيه مسببات الاسترقاق وتملك العبيد، ومن هنا فـــإن الغالب في هذا العصر أن الإنسان لن يجد أباه مملوكاً ليعتقه ليجزيه حقـــه، فكل ذلك يجب ألا يكون مثبطاً للبر بالوالدين أو القيام بحقهما، بل هو حث للاقتراب من الوصول إلى أعلى مستوى من البر، و لم يصل الإنسان إلى حد المجازاة الوارد ذكرها في الحديث السابق.

ومما يجب أن يُعلم أن بر الوالدين لا يقتصر على الوالد المـــسلم أو الأم المسلمة، بل الابن مطالب ببرهما حتى وإن كانا كافرين، بل وإن جاهـــداه ليشرك بالله فعليه واجب برهما من غير طاعة لهما في الشرك. روى الإمـــام مسلم في صحيحه عن مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبي وقاص: أنه نزل فيه آيات من القرآن، قال: حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حـــتى يكفـــر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمتَ أن الله وصاك بوالديك وأنـــا أمك وأنا آمرك بهذا، قال: فمكثت ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد، فقـــام

---

(١) مسند الإمام أحمد، باقي مسند المكثرين، حديث رقم ١٣٤٣٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب العتق، باب فضل عتق الولد، حديث رقم ٣٧٩٩.

ابن لها يقال له عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان:١٥)"[١].

وهذه أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، تقدم عليها أمها، وهي كافرة، فتقول: «قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: **نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ**»[٢]، ونزل قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨).

ويستمر البر بالوالدين الكافرين حتى بعد مماتهما، ففي الحديث أن عليًا ﷺ «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَبَا طَالِبٍ مَاتَ، فَقَالَ: **اذْهَبْ فَوَارِهِ**، قَالَ: إِنَّهُ مَاتَ مُشْرِكًا؟ قَالَ: **اذْهَبْ فَوَارِهِ**، فَلَمَّا وَارَيْتُهُ رَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ لِي: **اغْتَسِلْ**»[٣]. وأخذاً من هذا الحديث فإنه يشرع للمسلم أن يتولى دفن

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ، حديث رقم ٦٢٣٨.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضل التحريض عليها، باب الهدية للمشركين، حديث رقم ٢٦٢٠؛ وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج، حديث رقم ٢٣٢٥. واللفظ للبخاري.
(٣) سنن النسائي الصغرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (الرياض: دار السلام ، ١٤٢١هـ) كتاب الطهارة، باب الغسل من مواراة المشرك، حديث رقم ١٩٠؛ وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، جزء١، حديث رقم ١٦١.

قريبه المشرك، وأن ذلك لا ينافي بغضه إياه لشركه، ودفن الولد أبيه أو أمه المشرك هو آخر ما يملكه الولد من حسن صحبة الوالد المشرك في الدنيا[1].

وكما أوصى الإسلام ببر الوالدين في حياتهما، فهو قد فتح باب البر حتى بعد وفاتهما، وجعل من أبواب برهما صلة صديقهما، بل عده الرسول ﷺ من أبر البر، أخرج الإمام مسلم عن ابن عمر، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ**»[2].

ولكن ماذا عن تعامل الرسول ﷺ مع والديه؟ إن مما لا يخفى أن والدا رسول الله ﷺ توفيا وهما غير مسلمين، كما أنهما توفيا وهو صغير، ولم يبق إلا تعامله ﷺ معهما بعد وفاتهما، وإيفاء حقوقهما التي تلزم الابن بعد وفاة والديه، إضافة إلى عامل آخر وهو أنهما غير مسلمين، والضابط الشرعي في التعامل في هذه الحالة كما لا يخفى هو قول الحق عز وجل في محكم كتابه: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ (التوبة:١١٣). ولكن رحمته ﷺ وروح النبوة الحقة جعلته يطلب من ربه عز وجل أن يستغفر لأمه آمنة، ولكن لم يؤذن له في ذلك، ثُم استأذن ﷺ في زيارة قبرها فأذن له الله عز وجل، فعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: «زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: **اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ**

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، جزء١، ص ٩٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما، حديث رقم ٦٥١٥.

أَستَغفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاستَأْذَنتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ»[1]. وهذا أقصى درجات البر الذي يملكه ﷺ في ضوء المنظار الشرعي، وقد بلغ الذروة فيه ﷺ.

إلا أنه يمكن القول: إن الله عز وجل قد عوضه، عليه الصلاة والسلام، بأبوين مسلمين من الرضاعة، أما أمه من الرضاعة فهي مرضعته الأولى وهي ثويبة مولاة أبي لهب. وقد اُختلف في إسلامها[2]. وقيل: إنها أسلمت [3]، ومرضعته الثانية هي حليمة السعدية فقد أسلمت، رضي الله عنها، أما والده من الرضاعة فهو الحارث بن عبد العزى زوج حليمة السعدية، رضي الله عنها، الذي أسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه، إلا أن ابن إسحاق يذكر أنه أسلم بعد وفاة الرسول ﷺ[4].

وقد كان الصحابة، رضوان الله عليهم، يسمون حليمة السعدية، رضي الله عنها، أمَّه. وينظرون إليها على أنها أم النبي ﷺ. ففي الحديث الذي يرويه أبو داود في سننه أَنَّ أَبَا الطُّفَيْلِ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْسِمُ لَحْمًا بِالْجِعرَّانَةِ، قَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ: وَأَنَا يَوْمَئِذ غُلامٌ أَحْمِلُ عَظْمَ الْجَزُورِ إِذْ أَقْبَلَتْ امْرَأَةٌ حَتَّى دَنَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ فَجَلَسَتْ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: مَنْ

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه، حديث رقم ٢٢٥٩.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: حسان عبد المنان (الرياض: بيت الأفكار الدولية، ٢٠٠٤م) ص ١٦٥٣.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم (بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٠هـ) ص٣١.

(٤) السيرة النبوية، ابن هشام، ٢٩٧/١؛ وكذلك: الإصابة في تمييز الصحابة، مرجع سابق، ص ٢٢٤؛ وإن كان هناك من لا يجزم بإسلامه مثل ابن القيم، رحمه الله، انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ص٣١..

هيَ؟ فَقَالُوا: هَذِهِ أُمُّهُ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ[1]. كما يروي ابن سعد في الطبقات أن امرأة استأذنت على النبي ﷺ، وقد كانت أرضعته فلما دخلت عليه قال: أمي أمي، وعمد إلى ردائه فبسطه لها فقعدت[2].

أما صور بره بوالديه من الرضاعة فقد تمثلت مع مرضعته الأولى ثويبة، فقد كان ﷺ «يصلها من المدينة، فلما افتتح مكة المكرمة سأل عنها وعن ابنها مسروح، فأُخبر أنهما ماتا، وسأل عن قرابتها، فلم يجد أحداً منهم حياً»[3]. وفعله ﷺ من البر العملي بها، كما أن سؤاله عن قرابتها تحقيقاً لقوله ﷺ للسائل الذي سأله: هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال ﷺ: «**نَعَمْ، الصَّلاةُ عَلَيْهِمَا، وَالاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لا تُوصَلُ إلا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا**»[4]. وبكل حال فهذه الصورة من البر تُعدُ أقصى ما يملك لها حتى لو لم تكن أسلمت، بل هي ممارسة عملية، وصورة من صور رد الجميل، ووجه من أوجه البر للوالدين حتى ولو لم يكونا مسلمين.

ومن صور البر العملية للمصطفى ﷺ مع والدته من الرضاعة حليمة السعدية، ما فعله في أموال هوازن بعد انصرافه عن الطائف منتصراً حين وصوله إلى الجعرانة[5]، ومعه من هوازن سبي كثير يبلغ ستة آلاف من

---

(١) سنن أبي داود، باب الأدب، باب في بر الوالدين، حديث رقم ٥١٤٤.
(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ) ١/١١٤.
(٣) السيرة النبوية، ابن هشام، ١/٢٩٨؛ وكذلك: الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ١/١٨.
(٤) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في بر الوالدين، حديث رقم ٥١٤٢.
(٥) مكان قرب مكة المكرمة.

الذراري والنساء، ومن الإبل والشاء ما لا يُدرى عدده. «وقدمت عليه وفد هوازن مُسلمين فيهم تسعة نفر من أشرافهم فأسلمُوا وبايعُوا، ثُــم كلمُــوهُ فقالُوا: يا رسُول الله، إن فيمن أصبتُم الأُمهات والأخوات والعمات والخالات وهُن مخــازي الأقوام. فقــال ﷺ: **سأطلُبُ لكُــم، وقد وقعت المُقاســم فأي الأمرين أحــب إليكُم: الســبي أم المال؟**. قالُوا: خيرتنا يا رسُول الله بين الحسب والمال، فالحسب أحب إلينا، ولا نتكلم في شاة ولا بعير. فقال: **أما الذي لبني هاشم فهُو لكُم، وسوف أُكلم لكُم المُسلمين، فكلمُــوهُم وأظهرُوا إسلامكُم**، فلما صلى رسُول الله ﷺ الهاجرة قامُوا فتكلم خُطباؤُهُم فأبلغُوا ورغبُوا إلى المُسلمين في رد سبيهم، ثُم قام رسُول الله ﷺ حين فرغُوا فشفع لهُم وحض المُسلمين عليه، وقال: **قد رددت الذي لبني هاشم عليهم.** وفي رواية أنه قام خطيبهم زُهير بن صُرد فقال: يا رسُول الله، إن اللواتي في الحظائر من السبايا خالاتك وعماتك وحواضنك، اللاتي كُــن يكفُلنــك، وأنت خير مكفُول، ثُم أنشُدهُ الأبيات المشهُورة أولها:

أُمنُن علينا رسُول الله في كرم   فإنــك المــرء نرجُــوهُ ونــدخر

وفيها كذلك:

أُمنُن على نسوة قد كُنت ترضعها   إذ فُوك تملؤُهُ من محــضها الــدرر

فقال المُهاجرُون: ما كان لنا فهُو لرسُول الله، وقالت الأنصار كذلك، وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنُو تميم فلا. وقال عُيينةُ: أما أنا وبنُو فزارة فلا. وقال العباس بن مرداس: أمــا أنا وبنُو ســليم فلا، فقالت بنُو سليم: بل ما كان لنا فهُو لرسُول الله. قال: فقال رسُول الله ﷺ: **من تمسك منكُم**

بحقه فلهُ بكُل إنسان ست فرائض من أول فيء نُصيبهُ، فردوا إلى النـــاس نساءهُم وأبناءهُم»[1].

إن التأمل في هذه الحادثة ليجد أن وفد هوازن لامسوا الوتر الحـــساس من شخصية الرسول ﷺ، وهو خُلُق الوفاء فأنـــشدوه وناشـــدوه بموضــــوع الرضاع، الذي كان من حـــليمة السعدية، رضي الله عنها، وجعـــلوه سبباً إلى ما بلغوه من مطالب، ثُم هو صورة من صور الوفاء العملي والتعامـــل الخلقـــي الرفيع مع قوم والدته من الرضاعة، رضي الله عنها، فهو يترك السبي كله والغنائم لأجل تلك الوشيجة القرابية بينه ﷺ، وبين قوم مرضعته حليمة السعدية.

وفي موقف آخر من مواقف البر من لدن رسول الله ﷺ، مع أمه مـــن الرضاعة حليمة السعدية، رضي الله عنها، مما سبق ذكره[2].

أما مع والده من الرضاعة الحارث بن عبد العزى فـــيمكن أن نلمـــس صـــورة أخرى من صـــور الـــبر به وهو حرصـــه على إســـلامه، فيُروى أن الحـــارث بن عبد العزى، أبو رسول الله ﷺ من الرضاعة، قـــدم علـــى رسول الله ﷺ بمـــكة، فقالت له قريش: ألا تسمـــع يا حار[3] ما يقـــول

---

(١) فتح الباري، ٢/١٨٨١؛ وكذلك: السيرة النبوية، لبن هشام، ٥/١٦٣.

(٢) يروي أبو داود في سننه «أَنَّ أَبَا الطُّفَيلِ، قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْسِمُ لَحْمًا بِالْجِعرَّانَةِ، قَالَ أَبُو الطُّفَيلِ: وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلامٌ أَحْمِلُ عَظْمَ الْجَزُورِ إِذْ أَقْبَلَتْ امْرَأَةٌ حَتَّى دَنَــتْ إِلَــى النَّبِيِّ ﷺ فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ فَجَلَسَتْ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: مَنْ هِــيَ؟ فَقَــالُوا: هَــذِهِ أُمُّــهُ الَّتِــي أَرْضَعَتْهُ»، سنن أبي داود، باب الأدب، باب في بر الوالدين، حديث رقم ٥١٤٤.

(٣) تصغير لاسم الحارث، وقد اعتاد العرب استخدام التصغير في الأسماء حين المناداة، مثل قولهم (عثم) لعثمان. ومثل قول الرسول ﷺ لعائشة، رضي الله عنها: يا عـــائش، وغيرهم من الأسماء.

ابنك هذا! قال: وما يقول؟ قالوا: يزعم أن الله يبعث بعد المــوت، وأن لله دارين يعذب فيهما من عصاه، ويكرم فيهما من أطاعه، وقد شتت أمرنـــا، وفرق جماعتنا، فأتاه فقال: أي بني، مالك ولقومك يشكونك ويزعمون أنك تقول: إن الناس يبعثون بعد الموت، ثم يصــيرون إلى جنة ونـــار؟! فقـــال رسول الله ﷺ: **نعم، أنا أزعم ذلك، ولو قد كان ذلك اليوم يا أبت لقـــد أخذت بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم**، فأســلم الحارث بعـــد ذلـــك، فحسن إســـلامه، وكان يقـــول حين أسلم: لو قد أخذ ابني بيدي فعرفني ما قال لم يرسلني إن شاء الله حتى يدخلني الجنة»[1].

إن البر بالوالدين ينتج عنه عدد من الآثار الدنيوية، وعدد من الأجـــور في الآخرة، ومن ذلك:

- إن البر بالوالدين من كمال الإيمان، وحسن الإسلام، إذ فيه تحقيق لطاعة الله عز وجل، بالبر بهما، وتنفيذاً لحث المصطفى ﷺ على ذلك.
- يعد البر بالوالدين من أجل الطاعات، بعد الإيمان بالله عز وجل، وهو من الطرق الموصلة إلى الجنة.
- بر الوالدين يؤدي إلى زيادة الأجل، وطول العمر، ورفع الذكر في الـــدنيا والآخرة.
- بر الوالدين يكسب الإنسان بر الأبناء، والجزاء من جنس العمل.

---

(١) السيرة النبوية، لبن هشام، ٢٩٧/١.

٢- حقوق الزوجة، من الكتاب والسنة.. وتعامل الرسول ﷺ معها:

ورد في القرآن الكريم آيات عديدة تحث على الزواج، وأنه نعمة من نعم الله عز وجل، وآية من آياته، فيقول عز من قائل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم:٢١)، إذ في كنف الزواج تتحقق معاني عدة من مودة، ورحمة وطمأنينة، كما ورد الأمر بالزواج في سنة المصطفى ﷺ، والحث عليه مراراً وتكراراً، والترغيب فيه، والتحذير من مخالفة فطرة الله بالرغبة عن الزواج، أو العزوف عن تكوين الأسرة، ففي الحديث قوله ﷺ: «أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[(١)].

وهو ﷺ، ليس بدعاً في ذلك، فإن الزواج من سنن الأنبياء والمرسلين من قبله، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرعد:٣٨). قال القرطبي عند تفسير هذه الآية: «هذه الآية

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم ٥٠٦٣؛ وصحيح مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم ٣٤٠٣؛ واللفظ للبخاري.

تدل على الترغيب في النكاح والحض عليه، وتنهى عن التبتل، وهو ترك النكاح، وهذه سنة المرسلين»[1].

لذلك كان هناك نفور من العزوبية في غالبية المجتمعات القديمة والحديثة، مع تباين في أسباب تلك النفرة من كون الرجل يعيش عزباً. فبعض المجتمعات تنفر منها لتعارضها مع الحصانة والعفة، ولأنها مظنة الانحراف، وتعدي الحدود التي يرسمها المجتمع لمعاشرة الرجال للنساء.. وفي المجتمعات التي يرقى فيها الوعي الوطني والحفاظ على الصالح العام تعتبر العزوبية جريمة في حق الوطن إذ تؤدي إلى اضمحلاله وتناقص سكانه[2].

وفي الإسلام تكون النفرة من العزوبية لأنها مظنة الانحراف، وتخالف فطرة الله عز وجل، التي جبل عليها النفس البشرية، إضافة إلى أنها تؤدي إلى تناقص الأمة، وضعف أفرادها. ومن هنا نجد حث الرسول ﷺ على تكاثر الأمة، ففي الحديث أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب ومنصب إلا أنها لا تلد أفأتزوجها؟ فنهاه، ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فنهاه، فقال ﷺ: «**تَزَوَّجُوا الْوَلُودَ الْوَدُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ**»[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، الجزء ٢، ص ٢١٥.

(٢) قصة الزواج والعزوبية في العالم، علي عبد الواحد وافي (القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، بدون تاريخ) ص ١٤.

(٣) سنن النسائي الصغرى، كتاب النكاح، باب كراهية تزوج العقيم، حديث رقم ٣٢٢٩، وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٩٣٧.

ولقد حرص الإسلام على تصحيح العلاقة الزوجية بدءاً من تكوينـــها، فقد كان للزواج وطريقة نشوئه صور شائعة في الجاهلية، لا تنم عن تحقيـــق الحكمة منه، فضلاً عما فيه من امتهان للمرأة، فتصف أم المـــؤمنين الـــسيدة عائشة، رضي الله عنها، تلك الصور بقولها:

«إِنَّ النِّكَاحَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ، فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَـــاحُ النَّاسِ الْيَوْمَ، يَخْطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوْ ابْنَتَهُ فَيُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَـــا؛ وَنِكَاحٌ آخَرُ كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا أَرْسِـــلِي إِلَـــى فُلانٍ فَاسْتَبْضِعِي مِنْهُ وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلا يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ، الَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَهَا زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي نَجَابَةِ الْوَلَدِ، فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ نِكَاحَ الاسْتِبْضَاعِ؛ وَنِكَاحٌ آخَرُ يَجْتَمِعُ الرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشَرَةِ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَـــرْأَةِ كُلُّهُـــمْ يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ يَمْتَنِعَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا، تَقُولُ لَهُمْ: قَدْ عَرَفْتُمْ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ وَقَدْ وَلَدْتُ فَهُوَ ابْنُكَ يَا فُلانُ، تُـــسَمِّي مَـــنْ أَحَبَّتْ بِاسْمِهِ، فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ بِهِ الرَّجُـــلُ؛ وَنِكَـــاحُ الرَّابِعِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ الْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ لا تَمْتَنِعُ مِمَّنْ جَاءَهَا، وَهُنَّ الْبَغَايَا، كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَى أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تَكُونُ عَلَمًا، فَمَنْ أَرَادَهُـــنَّ دَخَـــلَ عَلَيْهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوْا لَهُمْ الْقَافَةَ ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَوْنَ فَالْتَاطَ بِهِ وَدُعِيَ ابْنَهُ، لا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلا نِكَاحَ النَّاسِ الْيَوْمَ»[١].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من قال لا نكاح إلا بولي، حديث رقم ٥١٢٧.

فواقع الحال الذي وصفته أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، يدل على فوضى أسرية، وتخالط في الأنساب، فضلاً عن غياب المقصد الحقيقي من الزواج وهو السكن والمودة والرحمة.

ولقد صحح الإسلام هذه العلاقة وأعاد الأمور إلى نصابها، وصولاً إلى المبتغى من الزواج، فرغب فيه، وحث عليه، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (النساء:٣)، ويؤكد الرسول ﷺ ذلك بقوله: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ**»[١]، والإسلام بهذا يلبي حاجة فطرية في النفس البشرية التي تظهر في قوله عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران:١٤).

ولقد تزوج، عليه الصلاة والسلام، في حياته خمس عشرة امرأة، ودخل بثلاث عشر منهن، وجمع بين إحدى عشر منهن، وتوفي عن تسع منهن، رضوان الله عليهن جميعاً. وابتنى لكل واحدة من أمهات المؤمنين بيتاً خاصاً بها لسكناهن حول مسجده ﷺ، وفي حقيقة الأمر هي حجر أو غرف

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب قول النبي ﷺ من استطاع منكم الباءة فليتزوج، حديث رقم ٥٠٦٦. وصحيح مسلم، كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، حديث رقم ٣٤٠٠.

محدودة أُطلق عليها اسم بيوت عرفاً، وإلا فهي كانت محدودة المساحة والطبيعة، يصفها داود بن قيس قائلاً: «رأيت الحُجُرات من جريد النخل، مُغشّياً من خارج بمسوح الشعر، وأظن عرض البيت من باب الحُجُرة إلى باب البيت نحواً من ست أو سبع أذرع، وأحرز البيت من الداخل عشر أذرع»[1]، ويصفها الحسن بعد دخوله إياها بقوله: «كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفها بيدي»[2]. وصغر مساحة هذه البيوت لم تمنع من شيوع روح المحبة والألفة بين ساكنيها، محمد ﷺ وكل زوجة من زوجاته، رضوان الله عليهن.

لقد حرص الإسلام على توثيق العلاقة بين الزوجين، وجعلها في أعلى مستويات الحميمية، لما لها من الأثر الإيجابي ليس على مستوى المترل وأهله فحسب، بل على المجتمع بشكل عام، فالإسلام يريد من الحياة الزوجية أن تكون سكناً، يقول الله عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم:٢١). والسكن هنا بمفهومه الشامل، وليس السكن المادي فحسب، أي مأوي للنوم والأكل والشرب، بل يراد منه أن يكون سكناً نفسياً، واجتماعياً، تطمئن النفس بدخوله، يتزود منه

---

(١) الأدب المفرد، حديث رقم ٤٥١. ويمكن تحديدها بمقاييس وقتنا الحاضر أنها لا تتجاوز ثلاثة أمتار في خمسة أمتار، والارتفاع لا يتجاوز بحده الأعلى المترين. انظر: سيرة النبي ﷺ في بيته، صالح الشامي، ص٧٢.

(٢) الأدب المفرد، حديث رقم ٤٥٠.

المسلم الطاقة ليواصل إعمار الأرض في خارجه، وهو كما قال القرطبي: «المودة والرحمة عطف قلوبهم بعضهم على بعض. وقال ابن عباس ﷺ: المودة حب الرجل امرأته، والرحمة رحمته إياها أن يصيبها بسوء»[1].

لذلك اعتنى الإسلام بمؤسسة الزواج و لم يتركها عبثاً، فجعل عقد الزواج بوجود ولي المرأة، وشاهدين ليعلم ويعلن، قال رسول الله ﷺ: «**لا نِكَاحَ إلا بِوَلِيٍّ**»[2]، وكذلك وجود الشهود قال الترمذي: «والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم من التابعين وغيرهم أنه لا نكاح إلا بشهود، لم يختلفوا في ذلك، من مضى منهم، إلا قوماً من المتأخرين من أهل العلم، وإنما اختلف أهل العلم في هذا إذا شهد واحد بعد واحد»[3].

وفرض الصداق كأول حق من حقوق الزوجة، ففي الحديث: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ الشِّغَارِ، وَالشِّغَارُ أَنْ يُزَوِّجَ الرَّجُلُ ابْنَتَهُ عَلَى أَنْ يُزَوِّجَهُ الآخَرُ ابْنَتَهُ، لَيْسَ بَيْنَهُمَا صَدَاقٌ»[4]. وسن الوليمة للعرس لقوله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف ﷺ حينما علم أنه قد تزوج: «**أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ**»[5].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي،، الجزء ٣، ص ٢٥٤.

(٢) سنن الترمذي، كتاب النكاح، باب ما جاء لا نكاح إلا بولي، حديث رقم ١١٠١.

(٣) سنن الترمذي، كتاب النكاح، باب ما جاء لا نكاح إلا ببينة، حديث رقم ١١٠٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الشغار، حديث رقم ٥١١٢؛ وصحيح مسلم، كتاب النكاح، باب تحريم نكاح الشغار وبطلانه، حديث رقم ٣٤٦٥؛ واللفظ للبخاري.

(٥) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الوليمة ولو بشاة، حديث رقم ٥١٦٧؛ وصحيح مسلم، كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد، حديث رقم ٣٤٩١.

فلم يعد هناك مجال للجهالة أو الأمور الخفية كما كان في نكاح الجاهلية، وقد وصفه الله عز وجل في محكم كتابه بالميثاق الغليظ، يقول عز من قائل: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ (النساء:٢١)، وهو من أوثق المواثيق التي ذُكرت في القرآن بوصفه غليظاً. واختلف العلماء في معنى الميثاق الغليظ « فقال الحسن وابن سيرين وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم: هو قول الله تعالى: ﴿الطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ﴾ (البقرة:٢٢٩)، وقال مجاهد وابن زيد: الميثاق الغليظ: عقدة النكاح.. فهذه التي تُستحلُ بها الفروج»[١].

لأجل هذا كله لا عجب أن نجد ذلك الاحتفاء بموضوع العلاقة بين الزوجين في حياة المصطفى ﷺ ما يدل على الحرص الشديد على تماسكها، فمن الحث النظري إلى الفعل العملي في مجمل حياته ﷺ، فبداية يحث على الخوف من الله عز وجل في النساء، فيقول ﷺ أمام أكبر حشد عرفه المسلمون وهو قائم يخطب في حجة الوداع: «**فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ**

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي (بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٣هـ) ص ٤١٧.

مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»[1]. ويوصي من بعده من المسلمين بالنساء خيراً، ويؤكد ذلك بقوله: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»[2]. ثم يحدد ﷺ الخيرية في العلاقة الزوجية، بقوله ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي»[3]، فميزان الخيرية الاجتماعية، والخُلُقية للرجل هنا، هو مقدار حسن المعاشرة للزوجة وحسن صحبته لها، فبمقدار حسن العشرة تكون درجة الخيرية.

ولن يصل الزوج إلى تلك الخيرية دونما حسن عشرة، ولين جانب منه لزوجته، وهذا لن يتأتي إلا بمعرفة خصائص الزوجة وطبائعها التي جُبلت عليها، حتى يتمكن من التعامل معها في ضوء تكوينها النفسي والاجتماعي، فمعرفة الشيء يسهل عملية التعامل معه، ولنا في ذلك أسوة حسنة من حياة المصطفى ﷺ، فلقد خبُر نفسية السيدة عائشة، رضي الله عنها، في مسألة دقيقة قد لا ينتبه لها كثير من الأزواج، وهو من هو، بمشاغله وتعدد مهامه، وتعدد أزواجه، ففي الحديث أنه ﷺ قال لها، رضي الله عنها: «إِنِّي لأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى، قَالَتْ: فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حج النبي ﷺ، حديث رقم ٢٩٥٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق ادم صلوات الله عليه وذريته، حديث رقم ٣٣٣١؛ وصحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، حديث رقم ٣٦٤٤؛ واللفظ لمسلم.

(٣) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ، رقم ٣٨٩٥؛ وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٣٠٩.

تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أَمَّا إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً فَإِنَّكِ تَقُولِينَ: لا وَرَبِّ مُحَمَّد، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى قُلْتِ: لا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ، قَالَتْ: قُلْتُ: أَجَلْ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَهْجُرُ إِلا اسْمَكَ»[1]. فمن خلال المعايشة للسيدة عائشة، رضي الله عنها، استطاع التعرف على جزء من شخصيتها، وهذا التعرف الدقيق، يؤكد تعرفه ﷺ على ما هو أكبر منه، وبهذه الطريقة يكون التعامل وفق المعرفة، ليصل بها إلى الخيرية التي عناها ﷺ بقوله: «وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي»[2].

والوصية بالخير بالنساء من لدن رسول البشرية ﷺ، لم تكن نابعة من فراغ اجتماعي، وإنما كانت تصحيحاً لما كان عليه أمر النساء في الجاهلية، وذلك قبل تكريم الإسلام لهن، وهو ما يصفه عمر ﷺ بقوله: «والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم»[3]. فهذه الكلمات القليلة، الموجزة من الفاروق ﷺ، فيها من البلاغة والإيجاز ما يصور وضع المرأة في الجاهلية، ثُم النقلة الواسعة التي

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب غيرة النساء ووجدهن، حديث رقم ٥٢٢٨؛ وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة، رضي الله عنها، حديث رقم ٦٢٨٥؛ واللفظ للبخاري.

(٢) سبق تخريجه قبل الحديث السابق.

(٣) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب تبتغي مرضاة أزولجك قد فرض الله لك تحلة، حديث رقم ٤٩١٣؛ وصحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، حديث رقم ٣٦٩٢؛ واللفظ للبخاري.

ارتقى الإسلام بالمرأة إليها «ففرض على الرجال برها أماً، واحترامها ومودتها زوجة، والعطف عليها أختاً وبنتاً، وحرم الإساءة إليها.. وكان التطبيق الفعلي للأوضاع الجديدة والمعاملة الكريمة يجري وفقاً لفعل الرسول ﷺ، وأوامره، تنفيذاً وإيضاحاً لأوامر الله تعالى»[1].

ومن تلك الخيرية التي تحلى بها الرسول ﷺ مع أهله، كانت كل معاملاته معهن، فمن ذلك حرصه على العدل بين زوجاته.. والعدل بين الزوجات كما هو مقرر عند الفقهاء في الأمور المادية، التي يمكن للإنسان إن يتحكم فيها، مثل النفقة، والكسوة والمسكن، وحاجيات المنزل وتبعاته المادية، أما الأمور القلبية التي لا يمكن للإنسان أن يتحكم فيها وعلى رأسها العواطف فإن الإنسان معذور، وهذا ما قصدته السيدة عائشة، رضي الله عنها، حين قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ، وَيَقُولُ: **اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلا أَمْلِكُ**»[2]، وهذا المشار إليه في قول الله عز وجل: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:١٢٩). قال أهل التفسير: «لن تطيقوا أن تسوّوا بينهن في المحبة التي هي نيل الطباع، لأن ذلك ليس من كسبكم»[3].

---

(١) سيرة النبي ﷺ في بيته، مرجع سابق، ص٩٢.

(٢) سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، حديث رقم ٢١٣٤.

(٣) زاد المسير في علم التفسير، مرجع سابق، ص ٣٣٢.

ومن هنا حذر ﷺ من يحيف من الأزواج المعددين فيقول ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ امْرَأَتَانِ يَمِيلُ لإِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَدُ شِقَّيْهِ مَائِلٌ»[1]. وكان ﷺ يمثل العدل حقيقة وواقعاً، فتقول عنه السيدة عائشة، رضي الله عنها: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لا يُفَضِّلُ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْقَسْمِ مِنْ مُكْثِهِ عِنْدَنَا»[2].

ومن حرصه على العدل بين زوجاته ﷺ أنه إذا أراد سفر أقرع بينهن، فتخرج معه إحداهن، وقد يُقرع لثنتين منهن، فتخرجان معه من وقعت عليها القُرعة من أزواجه، فعن السيدة عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت عن سفرة من سفراته ﷺ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَطَارَتْ الْقُرْعَةُ عَلَى عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ فَخَرَجَتَا مَعَهُ جَمِيعًا»[3]. وإذا جاءته الهدية من أحد أعطى جميع زوجاته بالسوية تحقيقاً للعدل بينهن، فعن أنس بن مالك ﷺ أن أم سليم، رضي الله عنها، بعثته إلى رسول الله ﷺ بصحن فيه رطب: «فَجَعَلَ يَقْبِضُ قَبْضَتَهُ فَيَبْعَثُ بِهَا إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ، وَيَقْبِضُ الْقَبْضَةَ فَيَبْعَثُ بِهَا إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ، ثُمَّ جَلَسَ فَأَكَلَ بَقِيَّتَهُ أَكْلَ

---

(١) سنن النسائي الصغرى، كتاب عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، حديث رقم ٣٣٩٤.

(٢) سنن أبي داود، كتاب النكاح باب في القسم بين النساء، حديث رقم ٢١٣٥.

(٣) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب القرعة بين النساء إذا أراد سفراً، حديث رقم ٥٢١١؛ وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل السيدة عائشة، رضي الله عنها، حديث رقم ٦٢٩٨؛ واللفظ لمسلم.

رَجُلٍ يُعْلَمُ أَنَّهُ يَشْتَهِيه»[1]. فتأمل كيف تجاوز ﷺ بفضله نفسه، وأعطى زوجاته قبل أن يأخذ نصيبه من الهدية، على الرغم من أنه كان يشتهيه، ففي باقي الحديث يقول أنس ﷺ: فأكل أكل رجل يُعلم أنه يشتهيه، فالهدية إنما أُرسلت له ﷺ، ومع ذلك فضل أزواجه بالهدية رغم محبته له ورغبته فيه، أليس في ذلك تحقيق للخيرية للأهل، التي أشار إليه ﷺ في الحديث السابق، ورغب أمته فيها؟

أما رحمته وحسن تعامله مع زوجاته ﷺ، مساعدته لأهله في بيته، قالت السيدة عائشة، رضي الله عنها، لما سئلت: ماذا يصنع في بيته فقالت، رضي الله عنها: «كان فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ»[2]، وتفسر السيدة عائشة، رضي الله عنها، هذه المهنة التي يكون عليها في بيته فتقول: «يَخيط ثَوْبه، وَيَخْصِف نَعْله، وَيُرَقِّع دَلْوه، وَيَحْلُب شَاته، وَيَخْدُم نَفْسه، مَا كَانَ إِلا بَشَرًا مِنْ الْبَشَر»[3]. وما تلك التصرفات التي تبدو منه ﷺ أو الأعمال التي يقوم بها إلا منطلقة من رحمته بأهل بيته وتخفيفاً عليهم من مشاق العمل.

ومن رحمته بهن أنه كان يطوف بهن كل يوم ويدخل عليهن ويلاطفهن ثُم يخرج إلى الأخرى وهكذا، فتروي السيدة عائشة، رضي الله عنها، قائلة:

---

(١) مسند الإمام أحمد، مسند باقي مسند المكثرين، مسند أنس بن مالك ﷺ، حديث رقم ١٢٢٩٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب في أهله، حديث رقم ٦٠٣٩.

(٣) فتح الباري، الجزء ٣، ص ٢٦٥٦.

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ الْعَصْرِ دَخَلَ عَلَى نِسَائِهِ فَيَدْنُو مِنْ إِحْدَاهُنَّ، فَدَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ فَاحْتَبَسَ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يَحْتَبِسُ»[1]، و لم يكن المكث طويلاً بدليل آخر الحديث، وإنما هي زيارة ملاطفة وأنس في كل يوم يقوم بها ﷺ إيناساً لهن، وحسن معاشرة.

ومن رحمته ﷺ، نجده يؤثر زوجاته على نفسه في بعض المواقف، التي يحتاج فيها المرء إلى مساعدة، وذلك ما كان منه ﷺ مع السيدة صفية، رضي الله عنها، في عودهم من خيبر، فيتحدث أنس بن مالك رضي الله عنه قائلاً: «أَنَّهُ أَقْبَلَ هُوَ وَأَبُو طَلْحَةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَ النَّبِيِّ ﷺ صَفِيَّةُ مُرْدِفُهَا عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَلَمَّا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ عَثَرَتْ النَّاقَةُ فَصُرِعَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمَرْأَةُ، وَأَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ أَحْسِبُ اقْتَحَمَ عَنْ بَعِيرِهِ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، هَلْ أَصَابَكَ مِنْ شَيْءٍ، قَالَ: لَا، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْمَرْأَةِ، فَأَلْقَى أَبُو طَلْحَةَ ثَوْبَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَقَصَدَ قَصْدَهَا، فَأَلْقَى ثَوْبَهُ عَلَيْهَا فَقَامَتْ الْمَرْأَةُ فَشَدَّ لَهُمَا عَلَى رَاحِلَتِهِمَا فَرَكِبَا فَسَارُوا»[2]، فقد كان من رحمته أن أمر أبا طلحة أن يبدأ بصفية ويتأكد ألا تكون قد أُصيبت، أما هو ﷺ فسيكون بعد التأكد أن زوجته صفية، رضي الله عنها، لم تصب.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب دخول الرجل على نسائه في اليوم، حديث رقم ٥٢١٦؛ وصحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينوي، حديث رقم ٣٦٧٩؛ واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الرجل جعلني الله فداك، حديث رقم ٦١٨٥.

وهذا الموقف يظهر جزءاً من شخصيته ﷺ الرحيمة بزوجاته، وهكذا تكون الخيرية للأهل، التي حث أمته عليها. والمواقف في ذلك كثيرة لمن أراد أن يحصيها، ولكن مما تحسن الإشارة إليه، هو أن رحمته ﷺ، وشفقته تزداد حين يكون ما يوجب ذلك، كأن تمرض إحداهن، فمن ذلك ما روته السيدة عائشة، رضي الله عنها، وهي تقصُ حادثة الإفك وأنها استغربت تصرف الرسول ﷺ بقولها: «ويريبني في وجعي أني لا أرى من النبي ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض إنما يدخل فيسلم ثم يقول: **كيف تِيْكُم**، لا أشعر بشيء من ذلك»[1].

ومن كل ذلك نجد أن زوجاته أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن، يعشن في ظلال رحمتين صادرتين عمن وصفه الله عز وجل بأنه رحيم، فالرحمة الأولى هي النابعة من وصف الحق عز وجل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨)، والرحمة الأخرى ما ورد في قول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ (الروم:٢١)،

ومن صور التعامل الأخلاقي الراقي ما كان يفعله ﷺ مع أزواجه، رضوان الله عليهن، لإدخال السرور عليهن، فقد كان يمازح بعضهن،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، حديث رقم ٢٦٦١؛ وصحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، حديث رقم ٧٠٢٠؛ واللفظ للبخاري.

ويلعب مع بعضهن، ويضحك مع بعضهن، فمن ذلك حديث المسابقة المشهور مع السيدة عائشة، رضي الله عنها، حيث تقول: «خَرَجْتُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلْ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: **تَقَدَّمُوا**، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: **تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَك**، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: **تَقَدَّمُوا**، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: **تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَك**، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ وَهُوَ يَقُولُ: **هَذِهِ بِتِلْكَ**»[(١)]. فلم يمنعه كونه مع أصحابه أن يجد الوقت المناسب لذلك اللهو المباح.

وفي الحديث وقفات جديرة بالتأمل، فمن ذلك أنه اختار زوجته بين كل الصحابة ليمارس ذلك اللهو، ولم يكن عدد الصحابة قليل، حيث كانت تلك الممارسة بعد منقلبه من غزوة بني المصطلق[(٢)]. ثم أراد ﷺ أن يكتمل الموقف الترويحي الأسري، بتهيئة المكان، حين قال للصحابة، رضوان الله عليهم: «**تَقَدَّمُوا**»، لكي يعطي المزيد من الحرية في اللهو المباح لزوجته السيدة عائشة، رضي الله عنها.

---

(١) مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٦٨٠٧؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٦٨٨٤.

(٢) إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق وتعليق: محمّد عبد الحميد التميمي (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ) ٢١٣/١.

ومن صور الانبساط مع زوجاته كذلك ما روته السيدة عائشة، رضي الله عنها، في موقف جمعها مع السيدة سودة، رضي الله عنها، بمشهد من النبي ﷺ، فتقول: أتيت النبي ﷺ بخزيرة طبختها له، وقلت لسودة -والنبي ﷺ بيني وبينها- كلي، فأبت. فقلت لها: كلي، فأبت، فقلت لها: لتأكلين أو لألطخن بها وجهك. فأبت. فوضعت يدي في الخزيرة فلطخت بها وجهها. فضحك النبي ﷺ فوضع فخذه لها وقال: «**الطخي وجهها**» فلطخت وجهي، فضحك النبي ﷺ[1].

وكان ﷺ يشاورهن، ويأخذ برأيهن، ويرى لهن قدراً في المشورة، فمن ذلك مشورة السيدة أم سلمة، رضي الله عنها، في صلح الحديبية لما أمر ﷺ أصحابه أن ينحروا هديهم ثُم يحلقوا، فلم يفعلوا من حرقة ما يجدون من صد لهم عن البيت الحرام. فوقع ذلك في نفس رسول الله ﷺ، ودخل على أم سلمة، رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس. فقالت أم سلمة، رضي الله عنها: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل

---

(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، لأحمد بن محمد القسطلاني، تحقيق: صالح بن أحمد الشامي (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١٢هـ) ٣٤٩/٢؛ وكذلك: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي (بيروت: مؤسسة المعارف، ١٤٠٦هـ) ١٥/٤.

بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً[1]. كما استشار السيدة زينب بنت جحش، رضي الله عنها، في شأن السيدة عائشة، رضي الله عنها، في حادثة الإفك، فقال ﷺ: «يَا زَيْنَبُ، مَا عَلِمْتِ مَا رَأَيْتِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلا خَيْرًا»[2].

وكان ﷺ يحب زوجاته، ويثني عليهن، ويمدحهن، ولم يكن يأنف من التصريح بذلك، وفي الحديث الصحيح أنه كان يقول عن السيدة خديجة، رضي الله عنها: «إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا»[3]. ويسأله عمرو بن العاص ﷺ: من أحب الناس إليه؟ فيجيبه ﷺ: «عَائِشَةُ، قُلْتُ: مِنْ الرِّجَالِ؟ قَالَ: أَبُوهَا، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: عُمَرُ»[4]، ويثني عليها، رضي الله عنها، بقوله ﷺ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»[5].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، حديث رقم ٢٧٣٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الشهادات باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، حديث رقم ٢٦٦١.

(٣) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين، رضي الله تعالى عنها، حديث رقم ٦٢٧٨.

(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات السلاسل، حديث رقم ٤٣٥٨؛ وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، حديث رقم ٦١٧٧.

(٥) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب فضل عائشة، رضي الله عنها، حديث رقم ٣٧٧٠؛ وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة، رضي الله عنها، حديث رقم ٦٢٩٩.

كما أثنى ﷺ على زوجته زينب بنت جحش، رضي الله عنها، فعن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِي أَطْوَلُكُنَّ يَدًا، قَالَتْ: فَكُنَّ يَتَطَاوَلْنَ أَيَّتُهُنَّ أَطْوَلُ يَدًا، قَالَتْ: فَكَانَتْ أَطْوَلَنَا يَدًا زَيْنَبُ لأَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا وَتَصَدَّقُ**»[1].

ويصفه جابر بن عبد الله ﷺ في موقفه مع السيدة عائشة، رضي الله عنها، في الحج، لما أصابها ما يصيب النساء، وتحسرت أن يرجع الناس بحجة وعمرة، وترجع هي بحجة فقط، لأنها لم تتمكن من العمرة التي قبل الحج، فأرسلها مع أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر فأهلت بعمرة من التنعيم، فقال واصفاً رسول الله ﷺ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلاً سَهْلاً إِذَا هَوِيَتْ الشَّيْءَ تَابَعَهَا عَلَيْهِ»[2]، ومعنى ذلك أنها إذا هويت شيئاً لا نقص فيه في الدِّين مثل طلبها الاعتمار وغيره أجابها إليه، فقد كان ﷺ سَهْلَ الْخُلُق، كَرِيم الشَّمَائِل، لَطِيفًا، مُيَسَّرًا فِي الْخُلُق، وَفِيهِ حُسْن مُعَاشَرَة الأَزْوَاج. وبلغ به الأمر ﷺ أن يرفض دعوة من دعاه دون أن تشاركه زوجته السيدة عائشة، رضي الله عنها، فيروي أنس بن مالك ﷺ: «أَنَّ جَارًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَارِسِيًّا كَانَ طَيِّبَ الْمَرَقِ فَصَنَعَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ جَاءَ يَدْعُوهُ. فَقَالَ: **وَهَذِهِ**؟ لِعَائِشَةَ، فَقَالَ: لا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **لا**، فَعَادَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **وَهَذِهِ**؟،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل زينب أم المؤمنين، رضي الله عنها، حديث رقم ٦٣١٦.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج، حديث رقم ٢٩٣٩.

قَالَ: لا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لا. ثُمَّ عَادَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَهَذِهِ؟. قَالَ: نَعَمْ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَامَا يَتَدَافَعَانِ حَتَّى أَتَيَا مَنْزِلَهُ»[1]، وفي ذلك من الإكرام لزوجه ما لا يبلغه أحد من العالمين.

ولكن هذه الصفة الكريمة فيه ﷺ لم تكن تجاوز به حدود الشرع، وحاشاه ذلك، فإذا خرج الأمر عن دائرة المباح يكون تصرفه ﷺ مختلفاً. فقد دخل على السيدة عائشة، رضي الله عنها، ووجد عندها قطعه من قماش فيه تصاوير قد سترت به شيئاً ما في البيت، فأزاله بنفسه، فعن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: «قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ، وَقَدْ سَتَرْتُ بِقِرَامٍ لِي عَلَى سَهْوَةٍ لِي فِيهَا تَمَاثِيلُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَتَكَهُ، وَقَالَ: **أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ**، قَالَتْ: فَجَعَلْنَاهُ وِسَادَةً أَوْ وِسَادَتَيْنِ»[2]. فمن رحمته ﷺ أن لم يُزله بجفوة وشدة، بل أزاله ووضح العلة؛ وهو موضوع التصاوير، وفي هذا من اللطف الشيء الكبير، على الرغم أنه كان يمكن أن يزيله، وينتظر السؤال من السيدة عائشة، رضي الله عنها، ولكن أخلاقه الكريمة واحترامه لزوجه جعله يبرر فعله حتى لا تنجرح نفسية الزوجة، حتى ولو لحظة واحدة.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب ما يفعل الضيف إذا تبعه غير من دعاه، حديث رقم ٥٣١٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب ما وطئ من التصاوير، حديث رقم ٥٩٥٤؛ وصحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، حديث رقم ٥٥٢٨؛ واللفظ للبخاري.

وتتجلى قمة صور الرحمة لنسائه ﷺ، والشفقة، والمحبة لهن في ذلك الموقف، الذي يمثل الذروة في التعامل الأخلاقي، والعلو في الذوق الإنساني، فتصف السيدة عائشة، رضي الله عنها، الموقف في صورة أدبية تصويرية للموقف رائعة بقولها:

«لَمَّا كَانَتْ لَيْلَتِي الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا عِنْدِي انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ، وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ، وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِهِ، فَاضْطَجَعَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إلا رَيْثَمَا ظَنَّ أَنْ قَدْ رَقَدْتُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رُوَيْدًا وَانْتَعَلَ رُوَيْدًا وَفَتَحَ الْبَابَ فَخَرَجَ، ثُمَّ أَجَافَهُ رُوَيْدًا فَجَعَلْتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي وَاخْتَمَرْتُ وَتَقَنَّعْتُ إِزَارِي، ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى إِثْرِهِ حَتَّى جَاءَ الْبَقِيعَ فَقَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْحَرَفَ فَانْحَرَفْتُ، فَأَسْرَعَ فَأَسْرَعْتُ، فَهَرْوَلَ فَهَرْوَلْتُ، فَأَحْضَرَ فَأَحْضَرْتُ، فَسَبَقْتُهُ فَدَخَلْتُ، فَلَيْسَ إلا أَنْ اضْطَجَعْتُ، فَدَخَلَ فَقَالَ: **مَا لَكِ يَا عَائِشُ حَشْيَا رَابِيَةً**[1] قَالَتْ: قُلْتُ: لا شَيْءَ، قَالَ: **لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: **فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي**، قُلْتُ: نَعَمْ، فَلَهَدَنِي فِي صَدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعَتْنِي ثُمَّ قَالَ: **أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ؟** قَالَتْ: مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ، نَعَمْ، قَالَ: **فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ، فَنَادَانِي، فَأَخْفَاهُ مِنْكِ، فَأَجَبْتُهُ فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ،**

---

(١) أي وقع عليك الحشا، وهو الربو، والتهيج الذي يعرض للمسرع في مشيه من ارتفاع النفس وتواتره. انظر: سيرة النبي ﷺ في بيته، مرجع سابق، ص١١١.

وَلَمْ يَكُنْ يَدْخلُ عَلَيْك وَقَدْ وَضَعْت ثِيَابَك، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْت فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقظَك، وَخَشيتُ أَنْ تَسْتَوْحشي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّه، قَالَ: قُولي: السَّلامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ منْ الْمُؤْمنينَ وَالْمُسْلمينَ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ منَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَلاحِقُونَ»[1].

إن تأمل تصرفه ﷺ ينبئ عن كل خلق كريم للزوج، فبعد أن ظن أن السيدة عائشة، رضي الله عنها، نائمة، أخذ رداءه بهدوء، ثُم انتعل بهدوء، ثُم خرج وجافى الباب بهدوء، كل ذلك حتى لا يزعجها بإيقاظها من النوم، وكل حرصه هو تأمين الراحة لها، رضي الله عنها، فقد خشي أن تستيقظ وتعرف وجهته فتستوحش، لما جُبلت النفوس عليه من خوف من القبر والقبور، وهو قد أمره الله عز وجل أن يذهب إلى البقيع ويستغفر لأهلها. ولا يخطر على بال المسلم أن هذا الفعل منه ﷺ لأنه كان في بيت عائشة وليلتها، أو لأنه يحبها. بل من المجزوم به أن هذا الفعل منه ﷺ كان سيكون حتى لو كان عند أي من زوجاته، ذلك أن منبع ذلك التصرف الأخلاقي الراقي منه ﷺ كان خُلقا أصيلاً في طبعه ﷺ، فكان سيعمل الفعل نفسه لو كان لدى أي زوجة من زوجاته، رضوان الله عليهن.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند الدخول للقبور والدعاء لأهلها، حديث رقم ٢٢٥٦.

ولم يكن حرصه ﷺ على أزواجه، رضوان الله عليهن، واهتمامه بأمرهن في حياتهن فحسب، بل كان الحرص والتوصية بهن، حتى ما بعد وفاته ﷺ، فعن السيدة عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ لَهُنَّ: إِنَّ أَمْرَكُنَّ لَمِمَّا يُهِمُّنِي بَعْدِي، وَلَنْ يَصْبِرَ عَلَيْكُنَّ إِلا الصَّابِرُونَ»[1]. وفي رواية أخرى يظهر ﷺ أنهن أهم أمر لديه بعد وفاته، ففي الحديث عند أحمد أنه ﷺ قال: «إِنَّكُنَّ لأَهَمُّ مَا أَتْرُكُ إِلَى وَرَاءِ ظَهْرِي، وَاللَّهِ لا يَعْطِفُ عَلَيْكُنَّ إِلا الصَّابِرُونَ أَوْ الصَّادِقُونَ»[2].

وكان من محبته ﷺ لهن يغار عليهن، وهي غيرة من غير ريبة كما ذكرها ﷺ في قوله: «إِنَّ مِنْ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْهَا مَا يَبْغُضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْ الْخُيَلاَءِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْهَا مَا يَبْغُضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ، وَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يَبْغُضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ»[3].
وهذا جزء من صور التعامل الأخلاقي له ﷺ مع زوجاته، وكيف لا يكون كذلك وهو يصف نفسه بأنه شديد الغيرة، فعندما بلغه من الصحابة، رضي

---

(١) مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث عائشة، رضي الله عنها، حديث رقم ٢٤٩٩٠؛ وسنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف الزهري، رضي الله عنه، حديث رقم ٣٧٤٩؛ وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم ١٩٩٨.
(٢) مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة، رضي الله عنها، حديث رقم ٢٥٤٠٥.
(٣) سنن النسائي الصغرى، كتاب الزكاة، باب الاختيال في الصدقة، حديث رقم ٢٥٥٩.

الله عنهم، قول سعد بن عبادة: «لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ». فقال ﷺ: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»[1]، ويصف أنس بن مالك ﷺ، حرصه ﷺ على ستر نسائه في أحد المواقف مع زوجته صفية، رضي الله عنها، فيقول: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحَوِّي لَهَا وَرَاءَهُ بِعَبَاءَةٍ ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ فَيَضَعُ رُكْبَتَهُ فَتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا عَلَى رُكْبَتِهِ حَتَّى تَرْكَبَ».

ومن المواقف الأخرى التي تظهر هذا الجانب من شخصيته ﷺ ما ترويه السيدة عائشة، رضي الله عنها-مما سبق ذكره- في إحدى الغزوات عندما أراد أن يسابقها، حيث هيأ المكان لها لتأخذ كامل راحتها في الممارسة، وذلك حين مرجعه من إحدى الغزوات فتصف عائشة، رضي الله عنها، الموقف فتقول: «خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلْ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: **تَقَدَّمُوا**، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: **تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ**، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: **تَقَدَّمُوا** فَتَقَدَّمُوا ثُمَّ قَالَ: **تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ**، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي فَجَعَلَ يَضْحَكُ وَهُوَ يَقُولُ: **هَذِهِ بِتِلْكَ**»[2]. فقد أمر الصحابة، رضوان الله عليهم، أن يتقدموا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب من رأى مع امرأته رجلاً فقتله، حديث رقم ٦٨٤٦.

(٢) مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٦٨٠٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٦٨٨٤.

قبل أن يتسابق معها، وهذا الأمر منه ﷺ لأصحابه أن يتقدموا، واضح أنه من باب الستر على النساء عامة، وعدم تعريضهن لنظر الرجال، فكيف بأمهات المؤمنين، رضي الله عنهن.

وكذا في أمر الحج والسفر، ففي الحديث أنه ﷺ قال لنسائه، رضوان الله عليهن، في حجة الوداع: «هَذِهِ ثُمَّ ظُهُورَ الْحُصْرِ»(١). وإن كان بعض أزواجه حججن بعد ذلك في خلافة عمر، في تفصيل مشهور ذكره ابن حجر في الفتح، إلا أن «زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ وَسَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ كانتا تَقُولانِ: وَاللَّه لا تُحَرِّكُنَا دَابَّةٌ بَعْدَ رسول الله ﷺ»(٢).

وموجز هذا الفصل أن الإسلام يحث على الزواج ويرغب فيه، بل عده آية من آياته، كما أكد المصطفى ﷺ أهمية الزواج، وحذر من مخالفة فطرة الله بالرغبة عن الزواج، أو العزوف عن تكوين الأسرة، ولقد حرص الإسلام على تصحيح العلاقة الزوجية بدءاً من تكوينها، وأعاد الأمور إلى نصابها، وصولاً إلى المبتغى من الزواج، ولقد تزوج، عليه الصلاة والسلام، وابتنى لكل واحدة من أمهات المؤمنين بيتاً خاصاً بها لسكناهُن حول مسجده ﷺ، لقد حرص الإسلام على توثيق العلاقة بين الزوجين، وجعلها في أعلى مستويات الحميمية، لما لها من الأثر الإيجابي، ليس على مستوى المنزل وأهله فحسب، بل على مستوى المجتمع بشكل عام.

---

(١) مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث زينب بنت جحش، رضي الله عنها، رقم ٢٧٢٨٧؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٦٨٨٥.

(٢) فتح الباري، ١٠٣٩/١.

وأوصى المصطفى ﷺ بالنساء خيراً، ولن يصل الزوج إلى تلك الخيرية دونما حسن عشرة، ولين جانب منه لزوجته، ومن تلك الخيرية التي تحلى بها الرسول ﷺ مع أهله، كانت كل معاملاته معهن، فمن ذلك حرصه على العدل بينهن، ورحمته وحسن تعامله معهن، ومساعدته لأهله في بيته، وممازحته هن، ومشاورتهن، والثناء عليهن، والتصريح بحبهن، والغيرة عليهن، وتحمل هفواتهن.

وبعد،

فهذه كانت بعضاً من صفاته الخُلُقية ﷺ، مع زوجاته، رضوان الله عليهن، وفيها صورة من تعامله الأخلاقي العالي معهن، وفيها نموذج يُحتذى، لمن كان طالباً الاقتداء بالرسول ﷺ إلا أنه على الرغم من كل ذلك الود والرحمة في تلك البيوت النبوية، فإنها لم تكن تخلو من بعض المشكلات الأسرية أحياناً، وبعض المنازعات بين زوجاته، بعضهن مع بعض، «ويخطئ من يجردهن من بشريتهن، ومن يدقق في حياتهن مما جاء يجد ضروباً من المغاضبة ومن المنافسة، وألواناً من الغيرة التي تحتدم حتى تجاوز المدى»[1]. وكذلك لم تخلُ الحياة من مغاضبة معه ﷺ.

ولأهمية ذلك الأمر، ومسيس الحاجة إلى التعرف عليه تفصيلاً، لما يشوب العلاقات الأسرية في وقتنا الحاضر من توترات لا تخفى، فسيكون الحديث في المبحث القادم، حديثاً مستقلاً عن تعامله ﷺ وعلاجه المشكلات الأسرية، التي حدثت في بيت النبوة.

---

(١) الأساليب النبوية في معالجة المشكلات الزوجية، عبد السميع أنيس (الدمام: دار ابن الجوزي، ١٤٢٦هـ) ص٢٢٥.

٣- تعامل الرسول ﷺ مع زوجاته في المشكلات الزوجية:

لقد كانت السكينة، والمودة، والرحمة ترفرف على بيوت النبي ﷺ، وكان تعامله مع أزواجه، رضي الله عنهن، يمثل الذروة في الرحمة، والشفقة، والألفة، ولكن على الرغم من كل ذلك، وعلى الرغم مما كان ﷺ يتعامل به من أخلاق سامية، إلا أن ذلك لم يكن ليحول دون وقوع بعض المشكلات العابرة بين أزواجه ﷺ، وهي مشكلات تؤكد بشرية النبي ﷺ، وتنطلق من واقعية الدين الإسلامي، وتعامله مع النفس البشرية، وما تحمله من صفات خُلُقية تزيد وتنقص، وهذا ما يجعل بعضاً من هذه المشكلات الأسرية تخرج إلى السطح، وتروى في ذلك أحاديث نبوية إلى قيام الساعة، وفي ذلك من الحكمة ما لا يخفى، حيث نسترشد نحن بهديه ﷺ القولي، والفعلي في التعامل مع هذا الجانب من جوانب الحياة.

ونحن في هذه العصر، الذي اتسم بتعقده، وتشابكه، وكثرة المشكلات الأسرية وتزايدها بأمس الحاجة إلى الهدي النبوي في التعامل مع هذه المشكلات لعلاجها، ومن ثَم السير بقطار الحياة الزوجية بهدوء وسكينة، وصولاً إلى المودة والرحمة والسكن، الذي ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

لقد وضع الإســـلام منهجاً وقائياً لمنع المشكلات الأسرية ابتداءً، فحدد الحقوق والواجبات بشكل عام، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**أَلا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَــكْرَهُونَ، وَلا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَــكْرَهُونَ، أَلا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ**»[1].

ونهى عن مفاجأة الأهل لمن قدم ليلاً من سفر، وعلل ﷺ ذلك لكـــي تستـــعد الزوجـــة لزوجها فتكون بأحسن حال بعد غيبته، فلا ينفر منـــها، أو يقع في قلبه عليها، ومخافة أن يخونهم، أو يلتمس عثراتهم، وهذا ما بوب به البخاري هذا الحديث، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا قَدِمَ أَحَدُكُمْ لَيْلاً فَلا يَأْتِيَنَّ أَهْلَهُ طُرُوقًا حَتَّى تَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ وَتَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ**»[2].

ونهى عن نشر أسرار ما يكون بينهم، حتى لا يوغر صدر أحدهم على الآخر، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّـــهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا**»[3].

وأمر الزوج بالنظر بالعدل في سلوك المرأة وأخلاقها، فإن ساءه منـــها خلق، فلينظر لبقية جوانب شخصيتها، وبقية أخلاقها، حتى يكون هناك نوع

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جـــاء في المرأة عـــلى زوجها، رقم ١١٦٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب لا يطرق أهله ليلاً إذا أطال الغيبـــة مخافـــة أن يخونهم أو يلتمس عثراتهم، حديث رقم ٥٢٤٤؛ وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، بـــاب كراهية الطروق وهو الدخول ليلاً، حديث رقم ٤٩٦٥. واللفظ لمسلم.

(٣) صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة، حديث رقم ٣٥٤٢.

من التوازن التعاملي، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ**»[1].

وكما وضع الإسلام منهجاً وقائياً حتى لا تقع المشكلات الأسرية، فقد وضع كذلك آلية للتعامل مع المشكلات الزوجية بعد وقوعها، في تدرج حكيم من الأسهل إلى الأصعب، ويراعي التباين في النفوس البشرية وتقبله للإصلاح، حيث يقول الله عز وجل: ﴿**ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا**﴾ (النساء:٣٤-٣٥).

ففي الآية تدرج حكيم في التعامل مع مختلف المستويات في المشكلات، ففي البداية الوعظ، ثم الهجر في المضجع، بمعنى لا يترك المنزل، وأخيراً الضرب، ولكن بشروطه المعروفة، التي حددها العلماء[2]. ويوضح ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**وَلا تَضْرِبْ الْوَجْهَ وَلا تُقَبِّحْ، وَلا تَهْجُرْ إلا فِي**

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، حديث رقم ٣٦٤٥.

(٢) انظر تفصيل جيد في ذلك عند القرطبي في تفسير الآية ٣٤ من سورة النساء في: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، الجزء ٣، ص ١١٨ وما بعدها.

الْبَيْتِ»[١]. ويلي هذه المراحل الثلاث إرسال حكم من أهله، وحكم من أهلها للصلح بينهما، وذلك وفق قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء:٣٥).

وعلى الرغم من وجود الضرب كوسيلة للعلاج الأسري، إلا أنه ﷺ ما ضرب بيده الكريمة امرأة قط تقول السيدة عائشة، رضي الله عنها: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلا امْرَأَةً وَلا خَادِمًا»[٢]. وذم الذين يضربون النساء بقوله ﷺ: «لا يَجْلِدُ أَحَدُكُمْ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ ثُمَّ يُجَامِعُهَا فِي آخِرِ الْيَوْمِ»[٣]. ولقد وجه ﷺ أحد أصحابه لما اشتكى له من سوء خُلُق زوجته قائلاً له: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي امْرَأَةً وَإِنَّ فِي لِسَانِهَا شَيْئًا، يَعْنِي الْبَذَاءَ، قَالَ: فَطَلِّقْهَا إِذًا، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لَهَا صُحْبَةً وَلِي مِنْهَا وَلَدٌ، قَالَ: فَمُرْهَا، يَقُولُ عِظْهَا، فَإِنْ يَكُ فِيهَا خَيْرٌ فَسَتَفْعَلْ، وَلا تَضْرِبْ ظَعِينَتَكَ كَضَرْبِكَ أُمَيَّتَكَ»[٤].

ولقد كانت بيوت النبي ﷺ وزوجاته يمر بهن ما يمر ببنات جنسهن من بعض الخلافات، وإن كان الغالب عليها هو ما يكون من جراء الغيرة، التي

---

(١) سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب في حق المرأة على زوجها، حديث رقم ٢١٤٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام، حديث رقم ٦٠٥٠.

(٣) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ما يكره من ضرب النساء، حديث رقم ٥٢٠٤. وصحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها، باب النار يدخلها الجبارون، حديث رقم ٧١٩١. واللفظ للبخاري.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب في الاستنثار، حديث رقم ١٤٢.

جُبلت عليه النساء عموماً، وسنرى في بعض المشكلات التي سوف نعرضها أنها لم تكن إلا بسبب الغيرة بينهن. وقد حكت شيئاً من ذلك السيدة عائشة، رضي الله عنها، فتقول: «مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ»[1].

وفي حادثة أخرى تظهر زوجة أخرى من زوجاته ﷺ وهي زينب بنت جحش، غيرتها من صفية، رضي الله عنهما، في طريق عودته ﷺ لـمَّا حج بنسائه برك بعير صفية، رضي الله عنها، فقال ﷺ لزينب بنت جحش، وكانت أكثرهن ظهراً: «يَا زَيْنَبُ أَفْقِرِي أُخْتَكِ صَفِيَّةَ جَمَلاً»، فقالت: أنا أفقر يهوديتك؟! فغضب النبي ﷺ حين سمع ذلك منها، فهجرها، فلم يكلمها حتى رجع إلى المدينة والمحرم وصفر، فلم يأتها، ولم يقسم لها، ويئست منه، فلما كان شهر ربيع الأول دخل عليها[2]. وهنا نرى أنه ﷺ عاقب بقدر الجرم، فلأنها عيرت صفية، رضي الله عنها، بيهوديتها بعد إسلامها، كان لا بد من عقاب يتناسب وتلك الزلة منها، «والهجر من أشد الأساليب أثراً على الزوجة، ولكنه أسرع في تعديل سلوكها.. ولم يتخذه ﷺ في هذا الموقف إلا لغلبة ظنه أن الهجر مُجدٍ فيها»[3].

---

(1) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب غيرة النساء ووجدهن، حديث رقم ٥٢٢٩؛ وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين، رضي الله عنها، حديث رقم ٦٢٨٠؛ واللفظ للبخاري.

(2) مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث صفية أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، حديث رقم ٢٧٤٠٣.

(3) الأساليب المستنبطة من تعامل الرسول ﷺ مع زوجاته وآثارها التربوية، حسين بن علي العمري، رسالة ماجستير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٣هـ، ص ٢٣٥.

إذن، فالغيرة كانت موجودة على الجميع ومن الجميع، ولكن يظهر أن أشد الغيرة من زوجاته ما كان من السيدة عائشة، رضي الله عنها، على السيدة خديجة، رضي الله عنها، ولقد بلغت الغيرة أشدها في أحد المواقف لدرجة تمني الموت، تقول السيدة عائشة، رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِه فَطَارَتْ الْقُرْعَةُ لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ بِاللَّيْلِ سَارَ مَعَ عَائِشَةَ يَتَحَدَّثُ، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: أَلا تَرْكَبِينَ اللَّيْلَةَ بَعِيرِي وَأَرْكَبُ بَعِيرَكِ تَنْظُرِينَ وَأَنْظُرُ، فَقَالَتْ: بَلَى، فَرَكِبَتْ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَمَلِ عَائِشَةَ وَعَلَيْه حَفْصَةُ فَسَلَّمَ عَلَيْهَا، ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلُوا، وَافْتَقَدَتْهُ عَائِشَةُ، فَلَمَّا نَزَلُوا جَعَلَتْ رِجْلَيْهَا بَيْنَ الإِذْخِرِ، وَتَقُولُ: يَا رَبِّ، سَلِّطْ عَلَيَّ عَقْرَبًا أَوْ حَيَّةً تَلْدَغُنِي وَلا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لَهُ شَيْئًا»[1]. وما ذلك التصرف من السيدة عائشة، رضي الله عنها، إلا بدافع الغيرة منها.

وحين النظر في بعض المشكلات التي حدثت في بيته ﷺ، سنجد كل الحكمة في التعامل معها، وهذه إحداها ترويها السيدة أم سلمة، رضي الله عنها، فتقول: «أَنَّهَا -يَعْنِي- أَتَتْ بِطَعَامٍ فِي صَحْفَةٍ لَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ وَأَصْحَابِه، فَجَاءَتْ عَائِشَةُ مُتَّزِرَةً بِكِسَاءٍ، وَمَعَهَا فِهْرٌ، فَفَلَقَتْ بِه الصَّحْفَةَ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ فِلْقَتَيْ الصَّحْفَةِ وَيَقُولُ: كُلُوا، غَارَتْ أُمُّكُمْ، مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب القرعة بين النساء إذا أراد سفرا، حديث رقم ٥٢١١؛ وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة، رضي الله عنها، حديث رقم ٦٢٩٨؛ واللفظ للبخاري.

أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَحْفَةَ عَائِشَةَ فَبَعَثَ بِهَا إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ وَأَعْطَى صَحْفَةَ أُمِّ سَلَمَةَ، عَائِشَةَ»[1].

إن تأمل هذا الموقف ليصيب الإنسان بالعجب، فالرسول ﷺ لم يزد على قوله: «غَارَتْ أُمُّكُمْ»، ولم يتجاوز ﷺ القول بضرب، أو هجر، أو غضب، أو تهديد بطلاق، وما ذلك إلا لأنه عرف السبب الدافع لذلك التصرف من السيدة عائشة، رضي الله عنها، وهو الغيرة بين النساء، فتعامل معه بقدره وفي ضوئه، فانتهت المشكلة في وقتها. وحلّها ﷺ من فوره، وهذه قاعدة مهمة في التعامل مع المشكلات الأسرية، وهي معرفة دوافع الفعل الصادر من الطرف الآخر (الزوج أو الزوجة)، فبمعرفة الدافع يزول كثير من الإشكال، ويمكن تجاوز المشكلة بأبسط الطرق، وهذا ما قام به ﷺ في هذا الموقف.

ولكنه ﷺ لم يكن يسمح لهن بتجاوز الحد الشرعي حتى وإن كان الدافع الغيرة، فالأمر إذن ليس على إطلاقه، فعندما قالت السيدة عائشة، رضي الله عنها، ما قالت في حق صفية، رضي الله عنها، وهو قول نابع من باب الغيرة، أنكر ذلك رسول الله ﷺ، وأرشد إلى الصواب. فعن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: «قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا -تَعْنِي قَصِيرَةً- فَقَالَ: **لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**»[2].

---

(١) سنن النسائي، كتاب عشرة النساء، باب الغيرة، حديث رقم ٣٤٠٨؛ وأصل الحديث عند البخاري، كتاب النكاح باب الغيرة، حديث رقم ٥٢٢٥.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة، حديث رقم ٤٨٧٥.

لقد كان من عادة أزواجه ﷺ أن يجتمعن كل ليلة عند التي يكون مبيت النبي ﷺ عندها، فإذا جاء وقت النوم انصرفت كل واحدة إلى حجرتها، وقد تحصل المشادات بينهن في هذا المجالس ورسول الله ﷺ حاضر، فلا يتجاوز الأمر ذلك المجلس، يروي أنس ﷺ أحد تلك المواقف بقوله: «كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ تِسْعُ نِسْوَةٍ، فَكَانَ إِذَا قَسَمَ بَيْنَهُنَّ لا يَنْتَهِي إِلَى الْمَرْأَةِ الأُولَى إِلا فِي تِسْعٍ، فَكُنَّ يَجْتَمِعْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي بَيْتِ الَّتِي يَأْتِيهَا، فَكَانَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ، فَجَاءَتْ زَيْنَبُ، فَمَدَّ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: هَذِهِ زَيْنَبُ، فَكَفَّ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فَتَقَاوَلَتَا حَتَّى اسْتَخَبَتَا[1]، وَأُقِيمَتْ الصَّلاةُ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ عَلَى ذَلِكَ فَسَمِعَ أَصْوَاتَهُمَا فَقَالَ: اخْرُجْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَى الصَّلاةِ وَاحْثُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: الآنَ يَقْضِي النَّبِيُّ ﷺ صَلاتَهُ فَيَجِيءُ أَبُو بَكْرٍ فَيَفْعَلُ بِي وَيَفْعَلُ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ صَلاتَهُ أَتَاهَا أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ لَهَا قَوْلاً شَدِيدًا، وَقَالَ: أَتَصْنَعِينَ هَذَا»[2].

فيظهر هذا الموقف سعة صدره ﷺ في تعامله مع زوجاته في حال رضاهن وكذلك في حال غضبهن.

وفي حادثة أخرى من حوادث المشكلات الأسرية التي اشترك فيها معظم أزواجه ﷺ ما ترويه السيدة عائشة، رضي الله عنها، فتقول: «أَرْسَلَ

---

(١) من السخب، وهو الصخب بمعنى الصياح وارتفاع الأصوات. انظر: لسان العرب، ٤٦٢/١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب القسم بين الزوجات، حديث رقم ٣٦٢٨.

أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ فاطمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّه ﷺ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيْه وَهُوَ مُضْطَجِعٌ مَعِي فِي مِرْطِي، فَأَذِنَ لَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّ أَزْوَاجَكَ أَرْسَلْنَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلْنَكَ الْعَدْلَ فِي ابْنَة أَبِي قُحَافَةَ، وَأَنَا سَاكِتَةٌ، قَالَتْ: فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ: **أَيْ بُنَيَّةُ، أَلَسْت تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟** فَقَالَتْ: بَلَى، قَالَ: **فَأَحِبِّي هَذِه**، قَالَتْ: فَقَامَتْ فَاطِمَةُ حِينَ سَمِعَتْ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ فَرَجَعَتْ إِلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَتْهُنَّ بِالَّذِي قَالَتْ وَبِالَّذِي قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقُلْنَ لَهَا: مَا نُرَاكِ أَغْنَيْت عَنَّا مِنْ شَيْءٍ، فَارْجِعِي إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقُولِي لَهُ: إِنَّ أَزْوَاجَكَ يَنْشُدْنَكَ الْعَدْلَ فِي ابْنَة أَبِي قُحَافَةَ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: وَاللَّه لا أُكَلِّمُهُ فِيهَا أَبَدًا؛ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَرْسَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْهُنَّ فِي الْمَنْزِلَة عِنْدَ رَسُولِ اللَّه ﷺ وَلَمْ أَرَ امْرَأَةً قَطُّ خَيْرًا فِي الدِّينِ مِنْ زَيْنَبَ، وَأَتْقَى لِلَّه، وَأَصْدَقَ حَدِيثًا، وَأَوْصَلَ لِلرَّحِمِ، وَأَعْظَمَ صَدَقَةً، وَأَشَدَّ ابْتِذَالاً لِنَفْسِهَا فِي الْعَمَلِ الَّذِي تَصَدَّقُ بِه وَتَقَرَّبُ بِه إِلَى اللَّه تَعَالَى، مَا عَدَا سَوْرَةً مِنْ حِدَّةٍ كَانَتْ فِيهَا تُسْرِعُ مِنْهَا الْفَيْئَةَ، قَالَتْ: فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ وَرَسُولُ اللَّه ﷺ مَعَ عَائِشَةَ فِي مِرْطِهَا عَلَى الْحَالَة، الَّتِي دَخَلَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا وَهُوَ بِهَا، فَأَذِنَ لَهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّ أَزْوَاجَكَ أَرْسَلْنَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلْنَكَ الْعَدْلَ فِي ابْنَة أَبِي قُحَافَةَ، قَالَتْ: ثُمَّ وَقَعَتْ بِي فَاسْتَطَالَتْ عَلَيَّ وَأَنَا أَرْقُبُ رَسُولَ اللَّه ﷺ وَأَرْقُبُ طَرْفَهُ، هَلْ يَأْذَنُ لِي فِيهَا؟ قَالَتْ: فَلَمْ تَبْرَحْ زَيْنَبُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ لا يَكْرَهُ أَنْ أَنْتَصِرَ،

قَــالَتْ: فَلَــمَّا وَقَعْتُ بِهَا لَمْ أَنْشَبْهَا حَتَّى أَنْحَيْتُ عَلَيْهَا، قَالَــتْ: فَقَــالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَبَسَّمَ: إِنَّهَا ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ»[1].

وفي الحديث فوائد عدة من تعامله ﷺ مع هذه المشكلة بين أزواجــه وغيرهن من السيدة عائشة، رضي الله عنها، ومن ذلك: أنه تعامل بحكمة مع طلب أزواجه، ولم يغضب، أو يهدد، فلم يزد على قوله: «أَيْ بُنَيَّةُ، أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟ فَقَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَأَحِبِّي هَذِهِ». وعندما اتهمته أزواجــه بعدم العدل تلقى ذلك بهدوء ورحابة صدر، لعلمه ﷺ أن مبعــث ذلــك التصــرف منهن هو مجــرد الغيرة بينهن، وليس القصد هو اتهامه بــالظلم. ولما جاءت زينب بنت جحــش، رضي الله عنها، لــم يتحــدث، ولكن لما استطــالت على السيــدة عائشة، رضي الله عنــها، أذن لعائــشــة أن تدافع عن نفســها، ولم يتولَّ الأمر، حتى لا يزيد الأمر اشتعالاً، ومن ثَــم يُتهم ﷺ بالميل لإحداهن.

وفي حادثة أخرى مشهورة، هي موقف زوجاته ﷺ حينمــا ســألنه التوسعــة في النفقة، فيحــدثنا جابر بن عبد الله ﷺ عن تلــك الحادثــة فيقول: «دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًــا بِبَابِهِ، لَمْ يُؤْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ، قَالَ: فَأُذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ فَدَخَلَ، ثُمَّ أَقْبَــلَ عُمَــرُ

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه، حديث رقم ٢٥٨١؛ وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة، رضي الله عنها، حديث رقم ٦٢٩٠؛ واللفظ لمسلم.

فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ، فَوَجَدَ النَّبِيَّ ﷺ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ، وَاجِمًا سَاكِتًا، قَالَ: فَقَالَ: لأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا؟ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: **هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ**، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا، فَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا، كِلاهُمَا يَقُولُ: تَسْأَلْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ؟ فَقُلْنَ: وَاللَّهِ لا نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ، ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ، ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ... حَتَّى بَلَغَ... لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ قَالَ: فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ، فَقَالَ: **يَا عَائِشَةُ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا أُحِبُّ أَنْ لا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ**، قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَتَلا عَلَيْهَا الآيَةَ، قَالَتْ: أَفِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ؟ بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لا تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ، قَالَ: **لا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلا أَخْبَرْتُهَا، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلا مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**»[1].

فلقد اجتمعن أزواجه عليه يسألنه النفقة، فما زاد على اعتزالهن شهراً حتى أنزل الله عز وجل آية التخيير، وانتهى الأمر محسوماً بشكل يضمن عدم

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً، حديث رقم ٣٦٩٠.

تكراره، ولكن الشاهد هنا هو تريث رسول الله ﷺ، فلم يطلق ويستبدل بهن غيرهن، فكل ما في الأمر هو اعتزالهن حتى يفصل الله عز وجل في الأمر، وقد كان ما كان من نزول آيات تتلى في كتابه الحكيم إلى يوم القيامة.

وفي حادثة أخرى تدل على حلمه ﷺ في التعامل مع زوجاته إبان حدوث مشكلة أسرية بينه وبين إحدى زوجاته، ما ترويه السيدة عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: «دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأَسِيرٍ فَلَهَوْتُ عَنْهُ، فَذَهَبَ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: **مَا فَعَلَ الأَسِيرُ؟** قَالَتْ: لَهَوْتُ عَنْهُ مَعَ النِّسْوَةِ فَخَرَجَ، فَقَالَ: **مَا لَكِ، قَطَعَ اللَّهُ يَدَكِ، أَوْ يَدَيْكِ**، فَخَرَجَ فَآذَنَ بِهِ النَّاسَ فَطَلَبُوهُ فَجَاءُوا بِهِ، فَدَخَلَ عَلَيَّ وَأَنَا أُقَلِّبُ يَدَيَّ، فَقَالَ: **مَا لَكِ، أَجُنِنْتِ؟** قُلْتُ: دَعَوْتَ عَلَيَّ، فَأَنَا أُقَلِّبُ يَدَيَّ أَنْظُرُ أَيُّهُمَا يُقْطَعَانِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ مَدًّا وَقَالَ: **اللَّهُمَّ إِنِّي بَشَرٌ، أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَوْ مُؤْمِنَةٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ فَاجْعَلْهُ لَهُ زَكَاةً وَطُهُورًا**»[1].

وبداية يحسن الإشارة إلى ما ذكره أحد المتخصصين في السيرة حيث قال: إن هذا الحادث يظهر أنه قبل فرض الحجاب على النساء[2]، ومما يلحظ في تعامله ﷺ أنه لم يضرب السيدة عائشة، أو يسبها، أو يهددها بطلاق أو غيره إن لم يرجع الأسير، فلم يزد على كلمته التي

---

(١) مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة، رضي الله عنها، حديث رقم ٢٤٧٦٣.

(٢) سيرة النبي ﷺ في بيته، مرجع سابق، ص ١١٩.

قالها، وعندما وجد الصحابة الأسير، وعاد هو إلى بيته ﷺ وقد نسي الموضوع لولا أنه رأى السيدة عائشة، رضي الله عنها، تفعل ما تفعل بيديها، فوضح لها الأمر، وانتهت المشكلة جملة وتفصيلاً، فلله دره من تعامل راقٍ يضع الأمور في مواقعها الحقيقية والمناسبة، ويزن الأمور بحجمها الطبيعي، فصلوات ربي وسلامه عليه من هادٍ للبشرية ومعلمٍ لخير ما ينفعها في الدنيا والآخرة.

ومما ينبغي الإشارة إليه حول تعامل الرسول ﷺ مع المشكلات الزوجية، هو أن «زوجاته ﷺ كنّ يتعاملن معه من خلال بشريته ﷺ لا من خلال نبوته، فتارة يحتالون له، وتارة يحتالون عليه، وتارة يغاضبنه، أو تغاضبه إحداهن، وتارة يجد على الواحدة منهن، وهو بسلوكه ﷺ معهن يرسم لنا الصورة البشرية كاملة، لتكون معلماً للأزواج في تعاملهم مع أزواجهم»[1].

وجماع هذا الفصل، أنه كان يمرّ في حياة النبي ﷺ بعض المشكلات الأسرية، وكان يتعامل معها بأسلوب راق في التعامل الأخلاقي، فلم يكن منه سباب أو جرح مشاعر، أو ضرب، أو تهديد بالطلاق، وأقصى ما فعله ﷺ هو هجران بعض زوجاته، واعتزال نسائه لمدة شهر، وكان عليه الصلاة والسلام يُنزل الأمور منازلها، ويعطي المواقف حجمها الطبيعي، وكان يتعامل مع الدوافع أكثر من تعامله مع المواقف ذاتها، وهذا مما يساعد

---

(١) سيرة النبي ﷺ في بيته، مرجع سابق، ص١٢٥.

على تجاوز العديد من المشكلات بسهولة ويسر، وبشكل يجعل المياه تعود إلى مجاريها في صفاء الحياة الزوجية، وقد يتدخل من يعالج المشكلة حينما يستدعي الأمر ذلك، ولكن الغالب أنه كان يعالجها بنفسه برحابة صدر، ينمُّ عن خُلُق كريم، وكيف لا يكون كذلك والله عز وجل قد زكاه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤).

وهذا هو المنهج الحق في التعامل مع المشكلات الزوجية، فما يظنه بعض الأزواج في وقتنا الحاضر، أو ما يطمعون إليه من رغبة في رؤية الكمال الأخلاقي والسلوكي متمثلاً في زوجاتهم مما يعد من الأمور المستحيلة، فالكمال لله عز وجل، لذا لا عجب أن نجدهم يعانون النكد والضيق في العيش؛ لأنهم لم يتصوروا هذه الحقيقة، وهذا ما يحرمهم من الاستمتاع بزوجاتهم، هذا إن لم يصل بهم الأمر إلى الطلاق بالفعل، فالمنهج في هذا واضح من هدي المصطفى، عليه الصلاة والسلام، في الحديث الذي يرويه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسْرُهَا طَلاقُهَا**»[1]، وأورد ابن حجر رواية أخرى تحث الأزواج على المداراة، وهي المجاملة والملاينة، واللفظ قوله ﷺ: «**فَدَارِهَا تَعِشْ بِهَا**»[2].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، حديث رقم ٣٦٤٣.

(٢) فتح الباري، ٢/٢٢٩٤.

فالحديث واضح الدلالة أن الاستمتاع بها لن يكون إلا على عوج، بل يمكن الأخذ من الحديث عدم استنكار اعوجاج المرأة، وينبغي عدم صرف الهمّ إلى التقويم الكامل لأنه لن يكون، ولكن التسديد والمقاربة، مع التغاضي عن كثير مما يكون من الزوجات جراء هذا الاعوجاج، الذي بيّنه رسول الهدى، عليه الصلاة والسلام.

إن مما تحسن ملاحظته في هذا الحديث النبوي الجامع لأصل كبير من أصول استقرار الحياة الزوجية، هو توضيح واقع الزوجة التعاملي مع الزوج، وحدود الإصلاح المطلوب من الزوج، وهو كما قال ابن حجر عند شرح الحديث بأنه ﷺ «رمز إلى التقويم برفق، بحيث لا يُبالغ فيه فيكسر ولا يتركهُ فيستمر على عوجه،.. فيؤخذ منه أن لا يتركها على الاعوجاج إذا تعدّت ما طبعت عليه من النّقص إلى تعاطي المعصية بمباشرتها أو ترك الواجب، وإنّما المراد أن يتركها على اعوجاجها في الأمور المباحة. وفي الحديث النّدب إلى المداراة لاستمالة النفوس وتألف القُلُوب. وفيه سياسة النساء بأخذ العفو منهن والصبر على عوجهن، وأن من رام تقويمهنّ فإنه الانتفاع بهن مع أنه لا غنى للإنسان عن امرأة يسكن إليها ويستعين بها على معاشه، فكأنه قال: الاستمتاع بها لا يتمّ إلا بالصّبر عليها»[1].

---

(١) فتح الباري، ٢/٢٢٩٤.

٤- حقوق الأبناء، من الكتاب والسنة.. وتعامل الرسول ﷺ معهم:

لقد عدَّ الإسلام الأبناء زينة من زينات الحياة الدنيا، فقال عزَّ من قائل في كتابه الحكيم: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف:٤٦)، كما عدّ طلب الذرية والرغبة في الولد والشوق إليه فطرة فطر الله الناس عليها، فيقول عز وجل على لسان زكريا، عليه السلام: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (مريم:٥-٧)، ويقول على لسان أبينا إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ (الصافات:١٠٠-١٠١)، وطلب الولد الصالح دعوة عباد الرحمن الصالحين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان:٧٤). ويوضح ترجمان القرآن، ابن عباس، رضي الله عنهما، بأن قرة العين في الأزواج والذرية أن يراهم الإنسان مطيعين لله تبارك[1].

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص ١٣٩٣.

فالأبناء نعمة من نعم الله عز وجل الكثيرة جداً، وهي نعمة تستحق الشكر للمنعم عز وجل، وينبغي أن يكون الشكر قولاً وعملاً.. شكر باللسان، وشكر بالعمل على إصلاح هؤلاء الأبناء ليكونوا لبنة صالحة في المجتمع المسلم، فلا إفراط ولا تفريط، لا إفراط في الحب والدلال لكي لا يصل بهم الأمر إلى أن يكونوا فتنة للمرء في دينه ودنياه، كما قال الحق عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التغابن:١٤-١٥)، وثبت عن المصطفى ﷺ أنه قال: **«إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ»**[١]. وفي رواية أخرى عند الطبراني: **«إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ مَحْزَنَةٌ»**[٢].

وكما لا يكون الأمر إفراطاً، فكذلك ينبغي أن ألا يكون هناك تفريط في تربية الوالدين لأولادهم، يقول الله عز وجل في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم:٦).

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات، حديث رقم ٣٦٦٦؛ وذكره الألباني في صحيح الجامع، برقم ١٩٨٥.

(٢) المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق: حمدي السلفي (القاهرة: مكتبة ابن تيمية ، بدون تاريخ) مرجع سابق؛ وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم ١٩٨٦.

إن الإنسان يرى نفسه في أبنائه، وأنهم امتداد له، ولأسـرته الكـبيرة، وهــم كذلك إذا أحسن الإنسان تربيتهم كانوا له ذخراً وعملاً صالحاً ممتداً لا ينقطع، يقول الرسول ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثَةٍ: إِلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[1]، فالولد الصالح الذي يدعو لأبيه هو مما يخلد ذكر الرجل في الدنيا ويـستفيد منه بالدعـاء في الآخـرة، ولكن ممـا تحسن الإشارة إليه أن الله عز وجل لم يفرق بين الذكر والأنثى، فالولد في لغة العرب تشمل الذكر والأنثى[2].

والحديث قيده بالولد الصالح الذي يدعو لأبيه، وهذا يـستلزم بـذل الجهد من الوالدين إصـلاح الأبناء؛ لكي يكون ذكرهم في الحيـاة الـدنيا ممتداً، وثوابهم في الحياة الآخرة كثيراً من الدعاء، الذي يلحقهما من ولدهما. وهي نتيجـة طبيعيـة، وعـادلة في الشـرع، فجزاء الإحسان الإحسان، كما قال عز وجل: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ (الرحمن: ٦٠)، فكما تحسن في التربية يكون الجزاء بالثواب الوفير من دعاء الولد الـصالح، وكما تدين تدان، فإن كان خيرًا كان الخير بالخير والبادئ أكرم.

ولقد كان رسول الله ﷺ يفرح بما يولد له من البنين أو البنات، ولقد كان من علامات ذلك أنه لما ذكرت السيدة عائشة، رضي الله عنها، السيدة

---

(١) صحيح مسـلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حـديث رقم ٤٢٢٣.

(٢) لسان العرب، مرجع سابق، ٤٦٦/٣.

خديجة، رضي الله عنها، بشيء من الكلام الذي يحدث بين الضرات، نتيجة للغيرة، أوضح لها ﷺ سبب تفضيله لخديجة، رضي الله عنها، تروي السيدة عائشة، رضي الله عنها، ذلك الموقف قائلة: «مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ، وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلا خَدِيجَةُ؟ فَيَقُولُ: إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ»[1].

والشاهد ما ذكره ﷺ في آخر الحديث، فقد أوضح ﷺ أن من أسباب تفضيله لخديجة، رضي الله عنها، أنها هي التي جاء له منها الولد، دون غيرها من زوجاته، رضي الله عنهن، وكما قال ابن حجر: إن ذلك من الأسباب التي جعلته ﷺ يُصرح بحبها ويقول: «إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا»[2].

ومن علامات فرحه ﷺ بالولد أنه لما بشره مولاه أبو رافع بمولد ابنه إبراهيم وهب له عبداً جزاء بشارته[3]، وهي دليل فرحته، ولم تكن الهدية يسيرة، بل كانت عبداً، وهي تُعدُّ هدية قيمة بمقاييس ذلك العصر.

ومع كل هذه الفرحة بالذكر إلا أنه ﷺ لم يفرق في تعامله بين الذكر والأنثى، ومن هنا لا معنى لمن يفضل الذكر على الأنثى في وقتنا المعاصر،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب باب تزويج النبي ﷺ خديجة، حديث رقم ٣٨١٨.

(٢) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين، رضي الله تعالى عنها، حديث رقم ٦٢٧٨.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، مرجع سابق، ص٣٩.

فهذه عادة جاهلية أبطلها الإسلام، ولعله لحكمة يعلمها الله عز وجل أن الرسول ﷺ لم يعش له من الولد إلا البنات، أما أولاده من الذكور فلم يعش منهم أحد، بل قد يكون من رزقه الله من الذرية البنات فقط مقدماً على من رزقهم ذكوراً فقط أو ذكوراً وإناثاً، وذلك وفق الترتيب في قول الله عز وجل: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (الشورى:٤٩-٥٠).

يذكر الشوكاني في تفسير هذه الآية أن تقديم الإناث على الذكور قد يكون لكثرتهن، بالنسبة إلى الذكور، وقيل لتطييب قلوب آبائهن[1]. ولكن إلا يمكن أن يقال: إن إيراد الآية بهذا الترتيب في مجتمع كان يئد البنات له دلالة أكبر مما قاله الشوكاني، رحمه الله، وإلى شيء من ذلك يذهب ابن القيم، رحمه الله، حيث يقول: «إنه تعالى قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدوهن، أي هذا النوع المؤخر الحقير عندكم مقدم عندي في الذكر»[2].

وبكل حال فقد أبطل الإسلام الخزي من الإناث، وتوعد بالأجر العظيم لمن عال ابنتين، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ عَالَ

(١) فتح القدير، مرجع سابق، ص١٥٩٥.

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود، ابن القيم الجوزية، تحقيق: كمال علي الجمل (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ١٤١٦هـ) ص٢١.

جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ، وَضَمَّ أَصَابِعَهُ»[1]. وعند الإمام أحمد في المسند أن الأجر حتى على ولو كانت بنتاً واحدة فقط، فيروي أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَى لأْوَائِهِنَّ وَضَرَّائِهِنَّ وَسَرَّائِهِنَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُنَّ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَوْ ثِنْتَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَوْ ثِنْتَانِ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَوْ وَاحِدَةٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَوْ وَاحِدَةٌ»[2].

لقد أكد الإسلام بداية على حسن اختيار الأم، وحدد المصطفى ﷺ معايير الاختيار للزوجة، وهي أربعة محددات: الجمال، المال، النسب، الدين. ثُم أبان ﷺ المحدد الذي يجب أن يأخذ به الحريص على مستقبل حياته الزوجية، وكذلك شكل تربية الأبناء فيقول ﷺ: «تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»[3]. ولقد كان النبي ﷺ القدوة في اختيار زوجاته.. وحتى يحفظ الطفل من نزغات الشيطان وضع الإسلام آداباً للجماع، وسن دعاءً يقال

---

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب فضل الإحسان إلى البنات حديث رقم ٦٦٩٥.

(٢) مسند الإمام أحمد، باقي مسند المكثرين، حديث رقم ٨٤٠٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، حديث رقم ٥٠٩٠؛ وصحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، حديث رقم ٣٦٣٥؛ واللفظ للبخاري.

عند إتيان الزوج زوجته، لتحصين الطفل الوليد من مكر الشيطان، فيقول الرسول ﷺ: «**أَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ حِينَ يَأْتِي أَهْلَهُ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، ثُمَّ قُدِّرَ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ أَوْ قُضِيَ وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا**»[1].

وأكد الإسلام على اختيار الاسم الحسن للولد، ونهى عن القبيح من الأسماء، أو ما له دلالة سيئة، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ، فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ**»[2]، وحث الرسول ﷺ على بعض الأسماء، فقد ثبت أنه ﷺ قال: «**إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ**»[3]، وقال ﷺ: «**تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الأَنْبِيَاءِ، وَأَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةُ**»[4]، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**وَلا تُسَمِّيَنَّ غُلامَكَ يَسَارًا، وَلا رَبَاحًا، وَلا نَجِيحًا، وَلا أَفْلَحَ، فَإِنَّكَ تَقُولُ أَثَمَّ هُوَ فَلا يَكُونُ فَيَقُولُ لا**»[5].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ما يقول الرجل إذا أتى أهله، حديث رقم ٥١٦٥؛ وصحيح مسلم، كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقول عند الجماع، حديث رقم ٣٥٣٣؛ واللفظ للبخاري.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في تعيير الأسماء، حديث رقم ٤٩٤٨.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الأداب، النهي عن التكني بأبي القاسم، حديث رقم ٥٥٨٧.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في تغير الأسماء، حديث رقم ٤٩٥٠.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الأداب، باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة، حديث رقم ٥٦٠١.

والحاصل من ذلك كله أن المطلوب من المسلم تحسين اسم ولده، ذكراً كان أم أنثى، والابتعاد به عن الأسماء المحرمة أو المستقبحة لما للاسم من أثر على المسمى، وقد فصل ابن القيم في هذه المسألة وأبان كيف يكون للاسم أثر في سلوك المسمى(١). ومن الأمور المقرر شرعاً على الوالد أن يوفر لولده الحقوق الأساسية والمتطلبات الضرورية للحياة من مأكل وملبس، ومأوى، وتعليم، يحدوه في ذلك قول المصطفى ﷺ: «**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ**»(٢).

وكان ﷺ يأمر برحمة الأطفال ومحبتهم، ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: «قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ ابْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنْ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: **مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ**» (٣)، وكان ﷺ يخرج إلى بيت فاطمة، رضي الله عنها، ليس له حاجة سوى تقبيل الحسن وهو طفل صغير، فيروي أبو هريرة رضي الله عنه ذلك الموقف قائلاً: «خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَائِفَةِ النَّهَارِ لا يُكَلِّمُنِي وَلا أُكَلِّمُهُ حَتَّى أَتَى سُوقَ بَنِي قَيْنُقَاعَ

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود، مرجع سابق، ص١٢١.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب في صلة الرحم، حديث رقم ١٦٩٢؛ وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم٤٣٥٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، حديث رقم ٥٩٩٧؛ وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، حديث رقم ٦٠٢٨؛ واللفظ للبخاري.

فَجَلَسَ بِفِنَاءِ بَيْتِ فَاطِمَةَ فَقَالَ: **أَثَمَّ لُكَعُ، أَثَمَّ لُكَعُ**، فَحَبَسَتْهُ شَيْئًا، فَظَنَنْتُ أَنَّهَا تُلْبِسُهُ سِخَابًا أَوْ تُغَسِّلُهُ، فَجَاءَ يَشْتَدُّ حَتَّى عَانَقَهُ وَقَبَّلَهُ، وَقَالَ: **اللَّهُمَّ أَحْبِبْهُ وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ**»[1]. وصورة أخرى من صور محبته للأطفال ما يرويه البراء بن عازب ﷺ قائلاً: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَى عَاتِقِهِ، يَقُولُ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ**»[2].

وفي موقف آخر له ﷺ مع ابنة بنته زينب، رضي الله عنها، وهي أمامة بنت أبي العاص، حيث صلى بالناس وهو يراعي طفولتها وضعفها، ففي الحديث المتفق عليه، الذي يرويه أبو قتادة قائلاً: «خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ وَأُمَامَةُ بِنْتُ أَبِي الْعَاصِ عَلَى عَاتِقِهِ فَصَلَّى فَإِذَا رَكَعَ وَضَعَ وَإِذَا رَفَعَ رَفَعَهَا»[3]، وفي رواية مسلم، يقول راوي الحديث: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَؤُمُّ النَّاسَ، وَأُمَامَةُ بِنْتُ أَبِي الْعَاصِ، وَهِيَ ابْنَةُ زَيْنَبَ بِنْتِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عَاتِقِهِ، فَإِذَا رَكَعَ وَضَعَهَا وَإِذَا رَفَعَ مِنَ السُّجُودِ أَعَادَهَا»[4]. فلم تكن صلاته ﷺ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما ذُكر في الأسواق، حديث رقم ٢١٢٢؛ وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل الحسن والحسين، رضي الله عنهما، حديث رقم ٦٢٥٧؛ واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين، رضي الله عنهما، حديث رقم ٣٧٤٩؛ وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل الحسن والحسين، رضي الله عنهما، حديث رقم ٦٢٥٨ واللفظ للبخاري.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، حديث رقم ٥٩٩٦.

(٤) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة، حديث رقم ١٢١٣.

نافلة، بل كانت صلاة فريضة، فقد ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب (العيال) أنه فعل ﷺ ذلك في صلاة العصر[1].

فأي رحمة، وأي محبة ألقاها الله عز وجل في قلبه للأطفال حتى يصل به الأمر أن يحمل الصغيرة في صلاته تأنيساً لقلب ذلك الصغير ورحمة بها.

ومن رحمته ﷺ بالحسن والحسين أنه كان يخاف عليهما الشيطان فيعوذهما بالله منه، فعن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقُولُ: **إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ**»[2].

وهذه الرحمة والمحبة للولد لم تمنعه ﷺ من تأديبهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُؤْتَى بِالتَّمْرِ عِنْدَ صِرَامِ النَّخْلِ، فَيَجِيءُ هَذَا بِتَمْرِهِ وَهَذَا مِنْ تَمْرِهِ، حَتَّى يَصِيرَ عِنْدَهُ كَوْمًا مِنْ تَمْرٍ، فَجَعَلَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَلْعَبَانِ بِذَلِكَ التَّمْرِ، فَأَخَذَ أَحَدُهُمَا تَمْرَةً فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْرَجَهَا مِنْ فِيهِ فَقَالَ: **أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ لا يَأْكُلُونَ الصَّدَقَةَ**»[3]. ومن هذا الباب قال ﷺ: «**وَايْمُ**

---

(١) كتاب العيال، ابن أبي الدنيا، تحقيق: نجم عبد الكريم خلف (المنصورة: دار الوفاء، ١٤١٧هـ) ص١٩٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلاً، حديث رقم ٣٣٧١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ صدقة التمر، حديث رقم ١٨٤٥.

اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا»[1]. إذن هو حُب لا يصل بمن يحب، مع المحبوب إلى ارتكاب محذور شرعي بسبب ذلك الحُب.

وكان ﷺ يظهر محبته لأبنائه، ولا يتوارى في ذلك، فيروي الإمام مسلم في صحيحه أن أنس بن مالك ﷺ قال: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيُدَّخَنُ وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ ثُمَّ يَرْجِعُ»[2].

ومن رحمته ﷺ بالحسن والحسين وهو على المنبر إذ قطع خطبته ونزل لهما، ففي الحديث الذي يرويه أبو بريدة ﷺ أنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُنَا إِذْ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْمِنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللَّهُ، إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، فَنَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا»[3].

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رُفع إلى السلطان، حديث رقم ٦٧٨٨؛ وصحيح مسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة، حديث رقم ٤٤١٠.

(2) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، حديث رقم ٦٠٢٦.

(3) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما، حديث رقم ٣٧٧٤. وسنن النسائي، كتاب الجمعة، باب نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة، حديث رقم١٤١٤.

وكان ﷺ يهشُ إذا دخلت عليه ابنته فاطمة، رضي الله عنها، ويقوم لها، ويرحب بها، فتروي السيدة عائشة، رضي الله عنها، واصفة ما يفعله ﷺ إذا دخلت فتقول: «أَقْبَلَتْ فاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ النَّبِيُّ: مَرْحَبًا بِابْنَتِي، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ»[1]، وكانت، رضي الله عنها، تفعل الشيء نفسه، فتحدثُ السيدة عائشة، رضي الله عنها، قائلة: «كَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ قَامَ إِلَيْهَا فَأَخَذَ بِيَدِهَا وَقَبَّلَهَا وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ، وَكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ إِلَيْهِ فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ فَقَبَّلَتْهُ وَأَجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا»[2]. وأنعم بذلك من تربية، فتعلمت، رضي الله عنها، من أبيها حسن الأدب، وليس هذا فحسب، بل إنها تعلمت، رضي الله عنها، أن «مقام الأبوة لا يمنع من احترام الأبناء على قدم المساواة مع احترام الآخرين، وهذا مما يرفع من حرارة الاحترام والتقدير للأب في نفوس الأبناء»[3].

وكان ﷺ يأمر بالعدل بين الأولاد، فيقول ﷺ: «اعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلادِكُمْ فِي الْعَطِيَّةِ»[4]، ورفض ﷺ أن يشهد على هبة أحد الصحابة لابنه، لما رأى أن الواهب خص بها ولداً واحداً دون بقية أولاده، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: «أَنَّ أُمَّهُ بِنْتَ رَوَاحَةَ سَأَلَتْ أَبَاهُ بَعْضَ الْمَوْهِبَةِ مِنْ مَالِهِ لابْنِهَا،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم ٣٦٢٣.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ما جاء في القيام، حديث رقم ٥٢١٧.

(٣) سيرة النبي ﷺ في بيته، مرجع سابق، ص٢٠١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الهبة للولد.

فَالْتَوَى بِهَا سَنَةً، ثُمَّ بَدَا لَهُ، فَقَالَتْ: لا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللَّـــه ﷺ عَلَى مَا وَهَبْتَ لابْنِي، فَأَخَذَ أَبِي بِيَدِي وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلامٌ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمَّ هَذَا بِنْتَ رَوَاحَةَ، أَعْجَبَهَا أَنْ أُشْهِدَكَ عَلَى الَّذِي وَهَبْتُ لابْنِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **يَا بَشِيرُ، أَلَكَ وَلَدٌ سِوَى هَذَا؟** قَـــالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: **أَكُلَّهُمْ وَهَبْتَ لَهُ مِثْلَ هَذَا؟** قَالَ: لا، قَالَ: **فَلا تُـــشْهِدْنِي إِذًا، فَإِنِّي لا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ**»[1]. ويبرر ذلك النبي ﷺ لواهب بتبرير عقلي مقنع حين قال له ﷺ: «**أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً؟** قَالَ: بَلَى، قَالَ: **فَلا إِذًا**»[2].

وكان يمازح الصبيان ويتنـــزل إلى مترلتهم العقلية للتوســعة علــيهم، فيروي أنس بن مالك ﷺ قائلاً عن تلك اللفتة الكريمة في رســول الله ﷺ: «إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيُخَالِطُنَا حَتَّى يَقُولَ لأَخٍ لِي صَغِيرٍ: **يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**»[3]، ومازح ﷺ الربيع بن محمود ﷺ وعمره خمس سنوات فيــصف

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، حــديث رقم ٢٦٥٠؛ وصحيح مسلم، كتاب الهبات، باب كراهية تفضيل بعــض الأولاد فــي الهبة، حديث رقم ٤١٨٢؛ واللفظ لمسلم.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الهبات، باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبــة، حــديث رقم٤١٨٥.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الانبساط إلــى النــاس، حــديث رقــم ٦١٢٩؛ وصحيح مسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله، حديث رقم ٥٦٢٢؛ واللفظ للبخاري.

ذلك الموقف النبوي بقوله: «عَقَلْتُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ مَجَّةً مَجَّهَا فِي وَجْهِي وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ مِنْ دَلْوٍ»[1]. وكان ﷺ يسلم على الصبيان ليرفع من قدرهم عند أنفسهم، فيروي أنس بن مالك ﷺ أنه قال: «كُنْتُ مَعَ النبي ﷺ فَمَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ»[2]. وعند ابن حجر في الفتح أن رسُول اللّه ﷺ كان يَزُور الأَنْصَار فَيُسَلِّم عَلَى صِبْيَانهِمْ وَيَمْسَح عَلَى رُءُوسهمْ وَيَدْعُو لَهُمْ[3]، وفي النص دلالة على تكرار ذلك وليس مجرد واقعة فريدة، وفي ذلك من تواضعه ﷺ ولين جانبه ما لا يمكن وصفه.

وكان ﷺ يؤكد أن ينتهي مشوار تربية البنات بتزويجهن، ووعد الجنة لمن يفعل ذلك، ففي الحديث أنه ﷺ قال: «**من كان له ثلاث بنات يؤدبهن، ويزوجهن، ويكفهن، وجبت له الجنة البتة**»[4]. كما حث الآباء على البحث عن الأكفاء، فعن السيدة عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: إن رسول الله ﷺ قال: «**تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ، وَانْكِحُوا الأَكْفَاءَ، وَأَنْكِحُوا**

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب متى يصح سماع الصغير، حديث رقم ٧٧.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في التسليم على الصبيان، حديث رقم ٢٦٩٦

(٣) فتح الباري، ٣/٢٧٣١.

(٤) كتاب العيال، باب في الإحسان إلى البنات، حديث رقم ٨٤، وقال محقق الكتاب: في إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف، وبقية رجاله ثقات، وللحديث شواهد تنهض به.

إِلَيْهِمْ»[1]، وفي الحديث الآخر قوله ﷺ: «**إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ، إلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ**»[2].

فقد حدد ﷺ مواصفات الخيرية في الزوج وهي الخُلُق والدين، وهكذا كان يفعل ﷺ في تزويج بناته في حسن اختيار الأزواج لهن، ويختار بين المتقدمين الأنسب لهن، فقد خطب أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، فاطمة، رضي الله عنها، فقال رسول الله ﷺ لهما: «**إِنَّهَا صَغِيرَةٌ**»، **فَخَطَبَهَا عَلِيٌّ فَزَوَّجَهَا مِنْهُ**. «وقوله ﷺ هذا القول لصاحبيه، رضي الله عنهما، لا يعني أنها ليست أهلاً للزواج، وإنما صغيرة باعتبار فارق السن بينها وبين أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، ولمَّا تقدم علي ﷺ و لم يكن زاد عمرها شيئاً يُذكر وافق على خطبتها له، ذلك لما بينهما من تقارب في السن»[3].

وفي ذلك الموقف الحرص على اختيار الأنسب من جميع النواحي لزوج البنت. ويؤكد على حسن الصحبة لهن لمن رغب أن يتزوجهن، فيروي أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ: «**لَقِيَ عُثْمَانَ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: يَا عُثْمَانُ، هَذَا جِبْرِيلُ أَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ قَدْ زَوَّجَكَ أُمَّ كُلْثُومٍ بِمِثْلِ صَدَاقِ**

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب الأكفاء، حديث رقم ١٩٦٨؛ وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٩٢٥.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب الأكفاء، حديث رقم ١٩٦٧؛ وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٦٧.

(٣) من معين الشمائل، صالح أحمد الشامي (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤١٨هـ) ص٣٧.

رُقَيَّةَ عَلَى مِثْلِ صُحْبَتِهَا»[1]، أي بحسن الصحبة، التي كانت منك لرقيـــة، رضي الله عنها.

وكان ﷺ يتعاهدهن بالسؤال والزيارة، حتى بعد زواجهن، فيـــزورهن في منازلهن، ويتفقد أحوالهن، ويصلح فيما بينهن وبين أزواجهن إذا وجـــد إحداهن مغاضبة لزوجها، ففي الحديث أنه ﷺ: «جَاءَ إِلَى بَيْتَ فَاطِمَةَ فَلَـــمْ يَجِدْ عَلِيًّا فِي الْبَيْتِ فَقَالَ: **أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟** قَالَتْ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَـــهُ شَـــيْءٌ فَغَاضَبَنِي فَخَرَجَ فَلَمْ يَقِلْ عِنْدِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِإِنْسَانٍ: **انْظُرْ أَيْنَ هُوَ**، فَجَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ فِي الْمَسْجِدِ رَاقِدٌ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّـــهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ قَدْ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ شِقِّهِ وَأَصَابَهُ تُرَابٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُهُ عَنْهُ وَيَقُولُ: **قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ**»[2].

ففـــي الحديث تعاهده ﷺ لابنته وحرصه عليها حتى بعد زواجهـــا، رضي الله عنها، فصلى الله عليه من أب رحيم ربَّ فأحسن التربية، ولـــم يكتف بذلك، بل حرص على التعـــاهد حتى بعد انتقالها إلى بيت الزوجية.

وكان من حرصه ﷺ توصيته بالبنت المردودة، وهي المطلقة، فيقول ﷺ لسراقة بن جعشم: «**ألا أدلك على أعظم الصدقة، أو من أعظم الصدقة؟**

---

(١) سنن ابن ماجه، باب فضل عثمان ﷺ حديث رقم ١١٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب نوم الرجال في المسجد، حـــديث رقـــم ٤٤١؛ وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي ﷺ، حديث رقم ٦٢٢٩؛ واللفظ للبخاري.

قال: بلى يا رسول الله. قال: بنتك المردودة إليك، ليس لها كاسب غيرك»[1]. وهو بذلك يترجم بشكل عملي وصيته ﷺ لأمته بالمرأة، ففي الحديث أنه ﷺ قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ»[2].

إن حسن التعامل مع الأبناء والأخذ في التعامل معهم بالمنهج النبوي، سوف ينتج عدداً من الثمار الدنيوية والدينية. ومن ذلك:

- الاقتداء بسيرة الرسول ﷺ في التعامل مع الأبناء، وفي ذلك لن يعدم الإنسان المسلم من أجر الاقتداء بالنبي ﷺ الذي نحن مأمورون بالاقتداء بسنته.

- إيجاد استقرار نفسي واجتماعي للأبناء في الأسرة، مما سينعكس بأثره على مستقبل حياقم، وحسن تعاملهم مع أبنائهم، وإبراز النماذج الحسنة من الحياة الوالدية.

- العمل على استمرار عمل المسلم الصالح، حتى بعد مماته، فمن الأعمال التي لا تنقطع بعد الممات، الولد الصالح الذي يدعو لوالديه.

- في حسن تربية الأبناء إيجاد لقاعدة قوية وصلبة من أفراد الأمة الإسلامية، التي تنهض على عواتقهم استعادة مجد هذه الأمة.

---

(١) الأدب المفرد، باب فضل من عال ابنته المردودة، حديث رقم ٨٠.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، باب حق اليتيم، حديث رقم ٣٦٧٨؛ وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٤٤٣.

٥- حقوق الأيتام، من الكتاب والسنة.. وتعامل الرسول ﷺ معهم:

إن مما كتبه الله - عزَّ وجل - أن يعيش عدد من الأطفال في المجتمع مرحلة اليتم، بفقد آبائهم أو أمهاتهم أو كليهما، وكان هذا الأمر كثيراً في المجتمعات السابقة، بسبب كثرة الحروب، والغزوات بينهم، وقد كان نصيب المجتمع المسلم ليس بالقليل، وبخاصة مع انطلاق الدعوة لنشر الإسلام وتعدد الغزوات.

وفي مجتمع المدينة المنورة، مهاجر رسول الله ﷺ عانى العديد من أبناء الأوس والخزرج من اليتم، بسبب الحروب بينهم، التي لم تنتهِ إلا بعد أن اعتنقوا الإسلام وأصبحوا أنصار رسول الله ﷺ، فقد أنتجت حروبهم الطويلة عدداً من الأيتام. وقد كانت حالات اليُتم من التحديات التي استمر وجودها باعتبارها ظاهرة واضحة في المجتمع الإسلامي الأول[١].

لقد كان من أثر هذه الحالة السياسية وجود وضع اجتماعي مختلف عن السابق إلى حد ما، برزت فيه كثرة الأيتام في المجتمع، ولكن هذا لا يعني تركهم هملاً، بل اهتم الإسلام بأمر الأيتام اهتماماً كبيراً، حيث بلغ عدد الآيات التي وردت فيها إشارة لليتم أو ذكر له في القرآن الكريم ثلاثاً

---

(١) الأسر الأنصارية في العهد النبوي: دراسة في أوضاعها الاجتماعية وتأثيرات الهجرة عليها، عبد الرحمن بن علي السنيدي، مجلة جامعة الإمام، جامعة الإمام محمد ابن سعود، الرياض، العدد ٣٣، ١٤٢٢هـ، ص٤٨٦.

وعشرين آية. وبالنظر في نصوص القرآن العديدة في شأن اليتيم، «فإنه يمكن تصنيفها إلى خمسة أقسام رئيسة، كلها تدور حول دفع المضار عنه، وجلب المصالح له في ماله، وفي نفسه، وفي الحالة الزواجية»[1]، والحث على الإحسان إليه، ومراعاة الجانب النفسي لديه.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ (البقرة:٨٣)، فالإحسان إلى اليتيم متعين كما هو للوالدين ولذي القربى، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (الضحى:٩)، قال ابن كثير عن تفسير هذه الآية: فلا تقهر اليتيم: أي لا تذله وتنهره وتهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف به، وكن لليتيم كالأب الرحيم[2].

وهناك عدد من الحقوق المقررة لليتيم، سواء كان يتماً طبيعياً أي بفقدان الوالدين أو أحدهما، أو كان اليتم بسبب جهالة الوالدين أو أحدهما وهو ما يعرف في الفقه الإسلامي باللقيط، وأول هذه الحقوق حقه في الحياة، ذلك أن الأصل في الشرع الإسلامي سلامة النفس البشرية، ووجوب الحفاظ عليها، وتحريم التعدي عليها بأي فعل أو وسيلة، ما لم يكن ثمة سبب شرعي موجب، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي (جده: دار الأندلس، ١٤٠٨هـ) ٩/٢٩٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ص ١٤٤٣.

عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (المائدة:٣٢)، فنجد في الآية الكريمة أنه عز وجل ساوى بين قتل النفس الواحدة بقتل البشر جميعاً، وساوى بين إحيائها بإحيائهم جميعًا.

ويستوي في ذلك الحق، وهو حق الحياة، الكبير والصغير، والذكر والأنثى، والصحيح والعليل، كما يستوي في ذلك الجنين من نكاح صحيح أو الجنين من وطء محرم، ما دام كينونته قد تحققت بنفخ الروح فيه، ويعرف هذا بعد بلوغه مائة وعشرين يومًا من الحمل، وقد أجمع الفقهاء على تحريم إجهاض الجنين بعد بلوغه هذه المدة، وعدوا الاعتداء عليه جريمة وجناية على نفس مؤمنة، ولا فرق في ذلك بين الجنين من نكاح صحيح أو من وطء محرم، ودليل هذا في قصة المرأة التي جاءت إلى رسول الله ﷺ مخبرة عن حملها من الزنا طالبة إقامة الحدّ عليها، فأمرها، عليه الصلاة والسلام، أن تنتظر حتى تضع حملها. ومن ثم تقوم بإرضاع وليدها. فيروي الإمام مسلم في صحيحه أنه جاءت الغامدية «فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي، وَإِنَّهُ رَدَّهَا، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَرُدُّنِي؟ لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَحُبْلَى، قَالَ: إِمَّا لا، فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي، فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ، قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ. قَالَ: اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ؛ فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ

فَطَمَتْهُ، وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا»[1].

فمن هذا الحديث يكون هذا الحق من أبرز ما كفله التشريع الإسلامي للطفل، حيث كان وأد البنات منتشرًا في الجاهلية خشية العار، إضافة إلى قتل الأولاد خوفًا من العيلة والفقر، فحرم الإسلام ذلك وشدَّد عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ (الإسراء:٣١)، وروى البخاري أن عبد الله ابن مسعود ﷺ قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: **أَنْ تَجْعَلَ لِلَّه نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ**، قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ**.. وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ... ﴾»[2]. وبهذه التوجيهات قرر الإسلام حقًا ثابتًا للإنسان وهو حقه في الحياة، لا يحل انتهاكه بأي شكل من الأشكال.

ومن الحقوق المقررة للأيتام حق النسب، وهذا بخاصة للأيتام اللقطاء، حيث يضمن الإسلام لهم الحق في النسب والانتساب، حتى لا يكون عرضة للجهالة، ومن ثمّ ضياع الحقوق الأخرى التي له، مثل الإنفاق والإرث،

(١) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس**﴾، حديث رقم٤٧٦١؛ وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، حديث رقم ٢٥٨؛ واللفظ للبخاري.

فيقرر الله عز وجل ذلك في قوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب:٥).

كما حرم الإسلام التلاعب بالأنساب، أو محاولة انتساب الابن لغير أبيه، ورتب على ذلك العقاب الشديد، ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ**»[1]. وبذلك ضمن الإسلام للطفل، أيًا كان، انتسابًا لأب والتصاقًا بفئة ينتمي إليها، و لم يتركه هملاً مجهولاً في المجتمع.

وكما قرر التشريع الإسلامي للطفل حق الانتساب فإن الرسول ﷺ وجه باختيار الاسم المناسب للطفل، فدلنا على الأسماء المحببة إلى الله مثل: عبد الله وعبد الرحمن وكذلك أسماء الأنبياء، كما أرشدنا إلى ترك بعض الأسماء غير المناسبة مثل: يسار، وحزن، وعاصية، وبرة. وبالنسبة للطفل اللقيط أو مجهول النسب فمن الحقوق المقررة له شرعًا أن يُجعل له اسم يُدعى به، ويشترط في هذا الاسم أن يكون اسمًا إسلاميًا لا يتنافى مع أحكام التسمية في الشرع المطهر، ولا تجوز نسبة مجهول النسب إلى قوم أو قبيلة أو أسرة، لما في ذلك من الكذب والإيهام والتلبيس على الناس، وبما ينتج عنه من اختلاط الأنساب.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الفرائض، باب من ادعى إلى غير أبيه، رقم ٦٧٦٦؛ وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم، رقم ٢١٩.

ومن الحقوق المقررة شرعاً للأيتام حق الرضاعة، ويستوي في ذلك الطفل السوي والطفل اليتيم، و هذا هو الحق الثالث للطفل في تسلسله في الحياة، فلقد أوجب الإسلام على الأمهات إرضاع أولادهن، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة:٢٣٣).

ولقد أجمع الفقهاء على وجوب إرضاع الطفل ما دام في حاجة إليه وهو في سن الرضاع، مع اختلاف في وجوبه على من؟ حيث قال بعض الفقهاء: يجب على الأب الاسترضاع لولده، وقال بعضهم: إنه يجب على الأم بلا أجرة، وإن رغبت الأم في الإرضاع أجيبت وجوبًا، سواء كانت مطلقة أم في عصمة الأب، لقوله تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا...﴾الآية. ولا شك أن منع الأم من إرضاع ولدها مضارة لها. وأيا كانت الاختلافات الفقهية، فإن ما يهمنا هو ضمان حصول الطفل على الحليب لنموه في صغره، حتى إن مات والده وأصبح يتيمًا، كما أن الطفل اللقيط له هذا الحق، ويتولاه ولي أمر المسلمين، بما يراه من الطرق المناسبة لكل عصر.

ومن الحقوق كذلك حقه في النفقة: وهذا الحق من الحقوق المقررة للأبناء على الآباء في التشريع الإسلامي «وقد أجمع الفقهاء على أن على المرء نفقة أولاده الأطفال الذين لا مال لهم، لأن ولد الإنسان بعضه، وهو بعض والده، كما يجب عليه أن ينفق على نفسه وأهله، كذلك على بعضه وأصله»[1]، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق:٧).

والنفقة الواجبة كما يعرفها الفقهاء هي: كفاية من يمونه خبزاً وإدامًا، وكسوة ومسكنًا وتوابعها، وإذا مات الأب أو كان في حكم المعدم غير القادر على الكسب، فتكون النفقة على كل الذين يرثونه على قدر إرثهم لو مات هو، فإن تعذر ذلك فعلى بيت مال المسلمين بما يقدمه من مساعدات نقدية لتحقيق هذا المطلب، ومن ذلك الأسر البديلة، التي ترعى بعض الأيتام أو الأطفال اللقطاء لديها، أو من خلال الدور الإيوائية، ومراكز الرعاية التي تنشئها الدولة.

وآخر هذه الحقوق الخاصة بالأيتام ومن في حكمهم، الحق في المخالطة، فيقول الله عز وجل: ﴿.. وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:٢٢٠). يورد ابن كثير في تفسير

---

(١) حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع، عبد الرحمن بن قاسم (بدون ناشر، ١٤٠٣هـ) ١٢٨/٧.

هـــذه الآية عـــن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: لما نزلت قوله تعـــالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام:١٥٢)، وقولـــه عـــز وجـــل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء:١٠)، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء في طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرســـول الله ﷺ فـــأنزل الله ﴿... وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:٢٢٠). فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم[١].

وقال ابن عباس، رضي الله عنهما، في تفسير هذه الآية: «المخالطـــة أن تشرب من لبنه ويشرب من لبنك، وتأكل من قصعته ويأكل من قـــصعتك. وقال أبو عبيد: المراد بالمخالطة أن يكون اليتيم بين عيال المولّى عليـــه»[٢]، وذلك مقتضى التكافل الاجتماعي في الإسلام الذي هـــو قاعـــدة المجتمـــع المســـلم، فاليتامى إخـــوان للأوصياء كلهم، أخوة في الإسلام، ومخالطتهم لا حرج فيها إذا حققت الخير لليتيم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لبن كثير، ص١٧٢.

(٢) فتح الباري، ١٣٧٦/٢.

وعلى الرغم من أن هذه الآية في حادثة معلومة، ولكن يمكن القول: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو مقرر في القاعدة الشرعية المعروفة، فيكون أمر المخالطة أشمل من المخالطة في الطعام والشراب فقط، ليشمل المخالطة الاجتماعية والتودد إليهم، والمخالطة النفسية، ومراعاة ظروفهم، ودمجهم مع المجتمع، وعدم عزلهم في دور أو ملاجئ كما قد يُفعل في بعض المجتمعات المسلمة.

وأما في مجال التوجيهات النبوية بشأن الأيتام فقد أمر ﷺ بحفظ أموال الأيتام، وعدم التعرض لها بسوء، وعدَّ ذلك من كبائر الذنوب وعظائم الأمور، ورتب عليه أشد العقاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ (النساء: ١٠)، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ (الإسراء: ٣٤). وعدَّ الرسول ﷺ أكل مال اليتيم من السبع الموبقات، فعن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاتِ**»[١]. ولخطورة ذلك الأمر، وجه ﷺ من كان ضعيفاً من

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى إن الذين يأكلون أموال اليتامى، حديث رقم ٢٧٦٦؛ وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم ٢٦٢؛ واللفظ للبخاري.

الصحابة ألا يتولين مال يتيم، فعن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»[1].

واستمراراً لحرص التشريع الإسلامي على أموال اليتامى، أمر باستثمارها وتنميتها حتى لا تستنفدها النفقة عليهم، فلقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «أَلا مَنْ وَلِيَ يَتِيمًا لَهُ مَالٌ فَلْيَتَّجِرْ فِيهِ، وَلا يَتْرُكْهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الصَّدَقَةُ»[2]. كما ورد عن عمر ﷺ أنه قال: «اتجروا في مال اليتامى حتى لا تأكلها الزكاة»[3]، ومن هنا يلزم الولي على مال اليتيم استثمارها لمصلحة اليتيم على رأي كثير من أهل العلم بشرط عدم تعريضها للأخطار.

كما جعل الإحسان إلى الأيتام علاجاً لقسوة القلب، فعن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال: «امْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وَأَطْعِمْ الْمِسْكِينَ»[4]. ورتب على ذلك الأجر العظيم، حيث يكسب المرء الحسنات العظام بكل شعرة يمسح فيها على رأس ذلك اليتيم، فعن أبي أمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ مَسَحَ

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، حديث رقم ٤٧٢٠.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في زكاة اليتيم، حديث رقم ٦٤١.

(٣) الموطأ، مالك بن أنس (الكويت: جمعية إحياء التراث الإسلامي، ١٤١٩هـ) باب زكاة أموال اليتامى والتجارة لهم، ص ١٦٣.

(٤) مسند الإمام أحمد، باقي مسند المكثرين، حديث رقم ٩٠٠٦.

رَأْسَ يَتِيمٍ لَمْ يَمْسَحْهُ إِلا لِلَّهِ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ، وَمَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى»(١).

وجماعًا لكل ما سبق، أمر الرسول ﷺ بكفالة اليتيم، وضمه إلى بيوت المسلمين، وعدم تركه هملاً بلا راع في المجتمع المسلم، فلقد أخرج البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا. وقال بإصبعيه السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى»(٢)، قال ابن حجر في فتح الباري: «ولعل الحكمة في كون كافل اليتيم تشبه منزلته في الجنة منزلة النبي ﷺ لأن النبي ﷺ شأنه أنه بُعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم فيكون كافلاً لهم ومعلمًا ومرشدًا، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه ولا دنياه فيرشده ويعلمه ويحسن تربيته، فظهرت مناسبة ذلك التشبيه بين منزلة كافل اليتيم ومنزلة محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، في الجنة»(٣).

كما عدَّ رسول الله ﷺ خير بيت من المسلمين بيتاً فيه يتيم يحسن إليه. فلقد ورد أن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ»(٤).

---

(١) مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٢٥٠٥.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيماً، حديث رقم ٦٠٠٥.
(٣) فتح الباري، الجزء ٣، ص ٢٦٤٦.
(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، باب حق اليتيم، حديث رقم ٣٦٧٩.

ولقد وعد الرسول ﷺ بالأجر العظيم لمن تكفل برعاية الأيتام، فقال ﷺ: **«مَنْ عَالَ ثَلاثَةً مِنْ الأَيْتَامِ كَانَ كَمَنْ قَامَ لَيْلَهُ وَصَامَ نَهَارَهُ، وَغَدَا وَرَاحَ شَاهِرًا سَيْفَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَكُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ أَخَوَيْنِ، كَهَاتَيْنِ أُخْتَانِ، وَأَلْصَقَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى»**(١).

وبهذه التوجيهات يكون التكافل الأسري الحق على أسس من الخُلق الكريم المطلوب من المسلم التحلي به، منتظراً الأجر من الله عز وجل، دونما إكراه أو إلزام، بل تحري للثواب واقتداء بالرسول ﷺ الذي كان القدوة في هذا المجال.

ولقد كان ﷺ من أرحم الناس بالأيتام، فقد تعددت المواقف في حياته ﷺ التي تحكي هذا الجانب، ومن ذلك موقفه ﷺ مع أيتام جعفر الطيار ﷺ بعد غزوة مؤته، فعن أسماء بنت عُميس، رضي الله عنها، قالت: «لَمَّا أُصِيبَ جَعْفَرٌ وَأَصْحَابُهُ دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ دَبَغْتُ أَرْبَعِينَ مَنِيئَةً وَعَجَنْتُ عَجِينِي وَغَسَّلْتُ بَنِيَّ وَدَهَنْتُهُمْ وَنَظَّفْتُهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **ائْتِينِي بِبَنِي جَعْفَرٍ**، قَالَتْ: فَأَتَيْتُهُ بِهِمْ فَشَمَّهُمْ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا يُبْكِيكَ، أَبَلَغَكَ عَنْ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ؟ قَالَ: **نَعَمْ، أُصِيبُوا هَذَا الْيَوْمَ**، قَالَتْ: فَقُمْتُ أَصِيحُ، وَاجْتَمَعَ إِلَيَّ النِّسَاءُ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ: **لا تُغْفِلُوا آلَ جَعْفَرٍ مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا لَهُمْ طَعَامًا، فَإِنَّهُمْ قَدْ شُغِلُوا بِأَمْرِ صَاحِبِهِمْ**»(٢).

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، باب حق اليتيم، حديث رقم ٣٦٨٠.

(٢) مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث أسماء بنت عميس، حديث ٢٧٦٢٦؛ والسيرة النبوية، ابن هشام، ٣١/٥.

ففي موقفه ﷺ هذا مواساة للأسرة من جانب وعطف على الأيتام، وذلك بشمهم وضمهم إليه. فهذه صورة عملية من تعامله ﷺ مع الأيتام، حيث يتمثلُ فيها الرحمة المهداة لهذه البشرية بأنقى صورها، وأعظم درجاتها، دونما تكلف أو تصنع.

ولقد كان حريصاً ﷺ على الأيتام، بل ويقدمهم على قرابته، وعلى ابنته فاطمة، رضي الله عنها، وهي عنده من المترلة والمحبة بمكان، ففي الحديث الذي يرويه الفضل بن الحسن الضَّمريّ ﷺ: «أَنَّ أُمَّ الْحَكَمِ أَوْ ضُبَاعَةَ، ابْنَتَيْ الزُّبَيْرِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، حَدَّثَتْهُ عَنْ إِحْدَاهُمَا أَنَّهَا قَالَتْ: أَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَبْيًا فَذَهَبْتُ أَنَا وَأُخْتِي وَفَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَحْنُ فِيهِ، وَسَأَلْنَاهُ أَنْ يَأْمُرَ لَنَا بِشَيْءٍ مِنْ السَّبْيِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **سَبَقَكُنَّ يَتَامَى بَدْرٍ**»[1]. والمرأتان اللاتي ذهبن إليه ﷺ برفقة ابنته فاطمة، رضي الله عنها، هما ابنتا عمه ﷺ، ومع ذلك كان التقدمة لأيتام شهداء بدر من الصحابة، رضوان الله عليهم.

وفي موقف آخر نجده ﷺ يزور أصحابه ومن لديهم أيتام في منازلهم ليدخل عليهم السرور والبركة، فيحدث أنس بن مالك ﷺ: «أَنَّ جَدَّتَهُ

(١) سنن أبي داود، كتاب الإمارة والخراج والفيء، باب مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربى، حديث رقم ٢٩٨٧.

مُلَيْكَةَ دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِطَعَامٍ صَنَعَتْهُ فَأَكَلَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: قُومُوا فَلْنُصَلِّ بِكُمْ، قَالَ أَنَسٌ: فَقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدْ اسْوَدَّ مِنْ طُولِ مَا لُبِسَ فَنَضَحْتُهُ بِالْمَاءِ فَقَامَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَفَفْتُ عَلَيْهِ أَنَا وَالْيَتِيمُ وَرَاءَهُ وَالْعَجُوزُ مِنْ وَرَائِنَا فَصَلَّى بِنَا رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفَ». وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ أَنَّهُ إِنَّمَا صَلَّى تَطَوُّعًا أَرَادَ إِدْخَالَ الْبَرَكَةِ عَلَيْهِمْ[1].

كما كان ﷺ يداعب الأيتام في مجتمع المدينة المنورة، ليدخل السرور في أنفسهم، ففي الحديث أن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كَانَتْ عِنْدَ أُمِّ سُلَيْمٍ يَتِيمَةٌ، وَهِيَ أُمُّ أَنَسٍ، فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْيَتِيمَةَ فَقَالَ: آنْتِ هِيَهْ، لَقَدْ كَبِرْتِ لا كَبِرَ سِنُّكِ، فَرَجَعَتْ الْيَتِيمَةُ إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ تَبْكِي، فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: مَا لَكِ يَا بُنَيَّةُ؟ قَالَتْ الْجَارِيَةُ: دَعَا عَلَيَّ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ أَنْ لا يَكْبَرَ سِنِّي، فَالآنَ لا يَكْبَرُ سِنِّي أَبَدًا، أَوْ قَالَتْ قَرْنِي، فَخَرَجَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ مُسْتَعْجِلَةً تَلُوثُ خِمَارَهَا حَتَّى لَقِيَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا لَكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ؟ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَدَعَوْتَ عَلَى يَتِيمَتِي؟ قَالَ: وَمَا ذَاكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ؟ قَالَتْ: زَعَمَتْ أَنَّكَ دَعَوْتَ أَنْ لا يَكْبَرَ سِنُّهَا وَلا يَكْبَرَ قَرْنُهَا، قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ شَرْطِي عَلَى رَبِّي؟ أَنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ وَأَغْضَبُ

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الرجل يصلي ومعه الرجال والنساء، حديث رقم ٢٣٤.

كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّمَا أَحَد دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

والخلاصة، أن لليتيم في حياة الرسول ﷺ مكانة عالية، فقد حث ﷺ على الإحسان إليه، وضمه إلى بيوت المسلمين، ومخالطتهم، والحرص على أموالهم وتنميتها واستثمارها حتى لا تأكلها الزكاة، كما كان ﷺ يخالط الأيتام، ويداعبهم ويقدمهم على غيرهم رأفة بهم وشفقة عليهم.

أما الثمرات التي يحصل عليها المسلم في تعامله الأخلاقي مع الأيتام فهي عديدة، ومنها ما يجده المسلم في حياته الدنيا، وبعضها الآخر، مما يدخره الله عز وجل له في آخرته، ولكن يمكن إيجازها في الآتي:

- في حسن التعامل مع اليتيم اقتداء بالرسول ﷺ في تعامله مع الأيتام.

- في إكرام اليتيم والقيام بأمره إكرام لمن شارك رسول الله ﷺ في صفة اليتم، وهي علامة محبة له ﷺ[2].

- في حسن التعامل مع اليتيم ضمان - بإذن الله - بمرافقة الرسول ﷺ في الجنة.

- كفالة اليتيم ورعايته من الأخلاق الحميدة، التي امتدحها الإسلام، وتضفي على من يقوم بها لباس التحلي بمكارم الأخلاق.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب من لعنه رسول الله ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً لذلك، حديث رقم ٦٦٢٧.

(٢) موسوعة نضرة النعيم، مرجع سابق، ٨/٣٢٦٤.

٦- حقوق الأقارب، من الكتاب والسنة.. وتعامل الرسول ﷺ معهم:

الأقارب والأرحام تكاد تأتي بمعنى واحد، وإن كان هناك من يفرق بعض التفريقات الدقيقة، قال ابن الأثير: «ذوو الرحم هم الأقارب، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب»[1]. والأرحام عند الفقهاء - غير الفرضيين منهم - يُراد بهم عند الإطلاق الأقارب. وهناك اختلاف في حد الرحم، التي ينبغي أن توصل بين الناس، فقيل: «كل رحم محرم، بحيث لو كان أحدهما أنثى والآخر ذكر حرُمت مُناكحتهما»[2]. ومثال ذلك: الآباء والأمهات، والإخوة والأخوات، والأجداد والجدات وإن علوا، والأولاد وأولادهم وإن نزلوا، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، ومن عدا هؤلاء من الأرحام فلا تتحقق فيهم المحرمية، كبنات الأعمام، وبنات العمات، وبنات الأخوال، وبنات الخالات.

وصلة الرحم هي: فعل كل ما يُعدُّ به الإنسان محسناً لقرابته ورحمه، فقد تكون هذه الصلة بالمال، أو بالجاه، أو قضاء حاجة، أو بالزيارة والسلام، أو بالكتابة إن كان غائباً، أو بالتواصل الهاتفي المنتظم، كما تكون صلة الرحم

---

(١) لسان العرب، مرجع سابق، ١/٦٦٥، ١٢/٢٣٣؛ وكذلك: القاموس المحيط، الفيروز آبادي (بيروت: دار إحياء التراث الإسلامي، ١٤٢٢هـ) ص١٠٢٥.

(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، مرجع سابق، ٧/٢٦١٤.

بتقديم خدمة مما يُعدُّ من الإحسان بين الناس عامة، وبكل حال فهي تختلف باختلاف الواصل والموصول، وبالجملة هي «كناية عن الإحسان إلى الأقربين من ذوي النسب والأصهار والعطف عليهم والرفق بهم والرعاية لأحوالهم؛ وقطع الرحم ضد ذلك كله»[1]. ولعل أدنى مراتب صلة الرحم هو إلقاء السلام لقوله ﷺ: «**بُلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلامِ**»[2]. فدل على أن أقل صلة الرحم هو السلام، سواء بشكل مباشر أم من خلال الكتابة، أو من خلال الهاتف.

ومن هنا نجد أن الإسلام لم يكتف بأن تكون علاقة العطف والرحمة والود قاصرة على الأسرة في نطاقها الضيق في حدود الأبوين والأولاد فقط، بل وسع دائرتها، حتى شملت كل قريب تصله بالإنسان علاقة نسب من جهة الأم أو من جهة الأب، وبهذا تمتد حبال الود وخيوطه لتصل إلى أماكن بعيدة في المجتمع المسلم. ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ ثَلاثًا، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالأَقْرَبِ فَالأَقْرَبِ**»[3].

ولقد أوصى الإسلام الإنسان المسلم بقرابته خيراً، كما أكد صلة الرحم ومودة ذوي القربى، وحذّر من قطعها في مواطن شتى من القرآن

---

(١) لسان العرب، مرجع سابق، ١١/٧٢٨.

(٢) فتح الباري، ٣/٢٦٣٩.

(٣) الأدب المفرد، حديث رقم ٦٠؛ وصححه الألباني في تعليقه على الحديث في الأدب المفرد.

الكريم والسنة النبوية، فيقول الله عز وجل في حق ذوي القربى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠). «وهذه اللفظة -﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾- تقتضي صلة الرحم، وتعمُّ جميع إسداء الخير إلى القرابة.. وهذا المعنى المأمور به في جانب ذي القربى داخل تحت العدل والإحسان، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماماً به وحتماً عليه»[1].

وفيما يتعلق بالأرحام، يقول عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النساء: ١)، ويقول عز وجل: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ (الرعد: ١٩-٢١). والمقصود بوصل ما أمر الله به أن يوصل: القرابات، كما ذكر ذلك عدد من المفسرين[2].

أما في السنة النبوية فتتوالى الوصايا من لدن خير البرية ﷺ بصلة الرحم، فعن أبي أيوب الأنصاري ﷺ قال: «أَنَّ أَعْرَابِيًّا عَرَضَ

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص ١١١٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لبن كثير، ص ٧٠٥؛ وكذلك: زاد المسير في علم التفسير، ص٥١؛ وكذلك: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص١٠٣٨؛ وكذلك: فتح القدير، ص ٨٨٧.

لِرَسُـــولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي سَـــفَرٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ أَوْ بِزِمَامِهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنْ الْجَنَّةِ وَمَا يُبَاعِدُنِي مِـــنْ النَّارِ؟ قَالَ: فَكَفَّ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ نَظَرَ فِي أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ: **لَقَدْ وُفِّقَ أَوْ لَقَـــدْ هُدِيَ**، قَالَ: كَيْفَ؟ قُلْتَ: قَالَ: فَأَعَادَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **تَعْبُدُ اللَّهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ**»[1]، فقد قرنهـــا ﷺ مع التوحيد، والصلاة، والزكاة التي هي أركان الإســـلام. ولـــيس هـــذا فحسب، بل عدَّه ﷺ من الموفقين والمهتدين أن سأل هذا السؤال، ولاشك أنه ﷺ أجابه بما يحقق للسائل التوفيق والهداية وهي: عبادة الله عز وجـــل، والصلاة والزكاة، وصلة الرحم.

وكما حث الإسلام على صلة الرحم فقد حذر من قطعهـــا بالوعيـــد الشديد والحرمان من الجنة، فقال ﷺ: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِـــمٍ**»[2]. وقطيعة الرحم من أسرع الذنوب تعجيلاً بعقوبتها في الحياة الدنيا مع ما يجده من عقوبة في الآخرة، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ ذَنْـــبٍ**

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب فضل صلة الرحم، حديث رقم ٥٩٨٣؛ وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة، حديث رقم ١٠٤؛ واللفظ لمسلم.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إثم القاطع، حديث رقم ٥٩٨٤؛ وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، حـــديث رقـــم ٦٥٢١؛ واللفظ لمسلم.

أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَـدَّخِرُ لَـهُ فِـي الآخِرَةِ، مِنْ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»[1]. ولقد دلنا الرسول ﷺ على إحـدى الوسائل المعينة على صلة الرحم، وهي معرفة النسب ليتعرف درجة قرابتـه، ليبـدأ بصلتـهم، الأقرب فالأقـرب، وفق الحـديث السـابق ذكـره. روى أبـو هريـرة ﷺ أن رسـول الله ﷺ قـال: «**تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ، مَثْـرَاةٌ فِـي الْمَالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الأَثَرِ**»[2].

ومما ينبغي أن يعلم أن الواصل ليس بالمكافئ، والمكافئ هو الذي يصل من أرحامه من وصله، ولا يصل من يقطعه، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنْ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَـتْ رَحِمُـهُ وَصَلَهَا**»[3]. فليس الوصل لمن وصلك، بل حقيقة الوصل يكون لمن قطعك، ويوضح ابن حجر هذه المسألة بقوله: «المُراد بالواصل في هـذا الحـديث الكامل، فإنّ في المُكافأة نوع صلة، بخلاف من إذا وصلهُ قريبه لم يُكافئهُ فإنّ فيه قطعًا بإعراضه عن ذلك، فلا يلزم من نفي الوصل ثُبوت القطع، فهُـم

---

(١) سنن الترمذي، حديث رقم ٢٥١١؛ وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعلم النسب، حديث رقم ١٩٧٩؛ والمسند، مسند المكثرين، حديث رقم ٨٨٥٥؛ وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، الجزء ١، برقم ٢٧٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، ليس الواصل بالمكافئ، حديث رقم ٥٩٩١.

ثلاث درجات: واصل ومُكافئ وقاطع، فالواصل من يتفضّل ولا يُتفضّل عليه، والمُكافئ الّذي لا يزيد في الإعطاء على ما يأخُذ، والقاطع الّذي يُتفضّل عليه ولا يتفضّل. وكما تقع المُكافأة بالصّلة من الجانبين كذلك يقع بالمُقاطعة من الجانبين، فمن بدأ حينئذٍ فهُو الواصل، فإن جُوزي سُمّي من جازاهُ مُكافئًا»[1].

ومما تحسن الإشارة إليه في هذا الأمر مسألة اختلاف الدين بين الواصل والموصول، حيث لا تلزم المسلم الصلة حال كون من يرغب وصله كافراً، لقول الله عز وجل: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة:٢٢).

أما كون الصلة مع الأبوين فالأمر متعين على المسلم قولاً واحداً فهي مطلوبة لقول الله عز وجل: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان:١٥). ويؤكد ذلك حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه: «إِنَّ آلَ أَبِي.. لَيْسُوا

---

(١) فتح الباري، ٣/٢٦٤٠.

بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ.. وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبُلُّهَا بِبَلَاهَا»[1]. فيوضح الرسول ﷺ أن وليه ﷺ من كان صالحًا وإن بعد منه نسبه، وليس وليه من كان غير صالح وإن قرب منه نسبه. ويستفاد من هذا أن الرحم المأمور بصلتها والمتوعد على قطعها هي التي شرع لها ذلك، فأما من أمر بقطعه من أجل الدين فيستثنى من ذلك، ولا يلحق بالوعيد من قطعه لأنه قطع من أمر الله بقطعه، لكن لو وصلوا بما يباح من أمر الدنيا لكان فضلاً.

ولصلة الرحم آثار فورية في الحياة الدنيا، ومن ذلك ما ورد في الحديث الشريف وهو قول المصطفى ﷺ: «فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ، مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الأَثَرِ»[2]. ففي صلة الرحم زيادة في الرزق، وزيادة في العمر.. ومن آثار صلة الرحم كذلك تخفيف الشحناء بين القرابات، فعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «تعلموا أنسابكم، ثُم صلوا أرحامكم، والله إنه ليكون بين الرجل وبين أخيه الشيءُ، ولو يعلم الذي بينه وبينه من داخلة الرحم لأوزعه ذلك عن انتهاكه»[3]. فمعرفة العلاقة بين المتشاحنين

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب تبل الرحم ببلالها، حديث رقم ٥٩٩٠.

(٢) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعلم النسب، حديث رقم ١٩٧٩؛ وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، الجزء الأول، حديث رقم ٢٧٦.

(٣) الأدب المفرد، حديث رقم ٧٣، ص٣٨؛ وذكر الألباني تعليقاً على الحديث قائلاً: حسن الإسناد، وصح مرفوعاً انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، حديث رقم ٢٧٧.

تردعهم في الغالب عن استمرار العداوة، وطول المخاصمة، بل قد تفضي بهم هذه المعرفة لما بينهم من رحم إلى الصلح إن كان ثمة تخاصم، أو تحجز عن ظلم أن كان ثمة نية لابتدائه. ومن آثارها تقوية أواصر العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة الواحدة، انطلاقاً منها إلى تقوية تلك العلاقة في المجتمع ككل.

ولقد كانت هذه الصفة المحمودة، وهي صلة الرحم، مما يوصف به ﷺ قبل البعثة، ففي حديث السيدة خديجة، رضي الله عنها، عندما رجع من الغار أول لقائه بجبريل، عليه السلام، فقالت مُطمئنة له: «كَلا، وَاللَّه مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»(١). واستمر هذا الخُلُق معه ﷺ بعد البعثة، فهو من بُعث ليتمم مكارم الأخلاق.

ومن مواقفه ﷺ في هذا الأمر ما قام به من إعانة على زواج اثنين من آل بيته الشريف؛ ففي الحديث الذي يرويه البخاري أنه «اجتَمَعَ رَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالا: وَاللَّه لَوْ بَعَثْنَا هَذَيْنِ الْغُلامَيْنِ، قَالا لِي وَلِلْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَكَلَّمَاهُ، فَأَمَّرَهُمَا عَلَى هَذِه الصَّدَقَاتِ، فَأَدَّيَا مَا يُؤَدِّي النَّاسُ وَأَصَابَا مِمَّا يُصِيبُ النَّاسُ.. ثُمَّ تَكَلَّمَ أَحَدُنَا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَنْتَ أَبَرُّ النَّاسِ، وَأَوْصَلُ النَّاسِ، وَقَدْ بَلَغْنَا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، حديث رقم ٣.

النِّكَاحَ فَجِئْنَا لِتُؤَمِّرَنَا عَلَى بَعْضِ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ فَنُؤَدِّيَ إِلَيْكَ كَمَا يُؤَدِّي النَّاسُ وَنُصِيبَ كَمَا يُصِيبُونَ، قَالَ: فَسَكَتَ طَوِيلاً.. ثُمَّ قَالَ: **إِنَّ الصَّدَقَةَ لا تَنْبَغِي لآلِ مُحَمَّدٍ، إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ، ادْعُوَا لِي مَحْمِيَةَ،** وَكَانَ عَلَى الْخُمُسِ، **وَنَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ**، قَالَ: فَجَاءَاهُ، فَقَالَ لِمَحْمِيَةَ[1]: **أَنْكِحْ هَذَا الْغُلامَ ابْنَتَكَ**، لِلْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ فَأَنْكَحَهُ، وَقَالَ لِنَوْفَلِ بْنِ الْحَارِثِ: **أَنْكِحْ هَذَا الْغُلامَ ابْنَتَكَ**، لِي فَأَنْكَحَنِي، وَقَالَ لِمَحْمِيَةَ: **أَصْدِقْ عَنْهُمَا مِنْ الْخُمُسِ**، كَذَا وَكَذَا»[2].

ومن مواقفه ﷺ، الدالة على حرصه على صلة رحمه وشفقته عليهم أنه لما أنزلت هذه الآية، وهي قول الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤)، دَعَا قُرَيْشًا «فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: **يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ، أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ، فَإِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلالِهَا**»[3]. فقد أبان ﷺ موقفه معهم أنهم

---

(١) هو محمية بن جزء، رجل من بني أسد كان رسول الله ﷺ استعمله على الأخماس.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة، حديث رقم ٢٤٨١.

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب في قول الله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، رقم ٥٠١.

لا يغني عنهم شيئاً إن هم لم يؤمنوا بهذا الدين، ولكن على الرغم من تكذيبهم فأنه أبان، عليه الصلاة والسلام، أنه سيصل الرحم بحدها الشرعي فحسب.

ومن مواقفه ﷺ في صلة الرحم استقباله لأخته من الرضاعة الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى لما استاقها الصحابة هي وزوجها إلى رسول الله ﷺ في منصرفه من غزوة الطائف، فإنها قدمت إليه وقالت له: يا رسول الله، أني أختك من الرضاعة.. فبسط لها رداءه فأجلسها عليه، وخيرها، وقال: **إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك**[1]**، وترجعي إلى قومك فعلتُ**، فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي، فمتعها رسول الله ﷺ وردها إلى قومها، وأعطاها غلاماً له يُقال له مكحول وجارية[2]. ومما تجدر ملاحظته هنا أن تعامله ﷺ معها كان وهي لم تدخل الإسلام بعد، ثم أسلمت، رضي الله عنها، بعد ذلك.

أما ثمرات صلة الرحم، التي يجنيها المسلم في دنياه وأخراه، فأبرزها أنها اقتداء بالرسول ﷺ، كما أنها تقوي أواصر العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة الواحدة، ليعم المجتمع بكامله الترابط والتواد.

---

(١) أي: أعطيك ما يكون فيه متعتك وانتفاعك.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، الجزء ٥، ص ١٢٨.

٧- حقوق المسنّين، من الكتاب والسنة.. وتعامل الرسول ﷺ معهم:

إن من سنن الله عز وجل في تكوين أيٍّ مجتمع من المجتمعات وجود طبقة من كبار السن، يعمّرون ويطول بهم العمر، وقد اعتنى الإسلام بهذه الفئة، وأعطاها حقها من التقدير والاحترام والتكريم، وبخاصة أنه يصاحب هذه المرحلة ضعف عام في الإنسان، وذلك مصداق لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ (الروم:٥٤). فالإنسان يمر بثلاث مراحل رئيسة: ضعف، ثم قوة، ثم ضعف، وهناك عدد من التغيرات التي تصيب الإنسان في حالة كبره: فهناك التغيرات الجسمية، والتغيرات الاجتماعية، ومن ذلك تقلُص علاقاتهم الاجتماعية، والنفسية، والعقلية، والاقتصادية، وفي التراث النبوي الكثير من الوصايا بهذه الفئة، فضلاً عن الممارسات العملية للمصطفى ﷺ.

إن للمسن مكانته المتميزة في المجتمع المسلم، فهو يُتعامل معه بكل توقير واحترام، انطلاقاً من قول الرسول ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا»[1]. وفي إلقاء السلام أمر ﷺ أن «يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ،

(١) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان، حديث رقم ١٩٢١.

وَالْمَارُّ عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ»[1]، وحتى في الكلام أمر ﷺ، ألا يتكلم الصغير في أمر دون الكبير، ففي الحديث أنه ﷺ قال لمن تكلم عنده وفي القوم من هو أكبر منه: «كَبِّرْ الْكُبْرَ»[2]، قال يحيى - وهو أحد رواة الحديث - يعني ليلي الكلام الأكبر.

وقرن رسول الله ﷺ بين إكرام المسن وإجلال الله عز وجل، ففي الحديث أنه ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ إِجْلالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ»[3]. بل ذكر ابن حجر في الفتح حديثاً فيه توجيه إلهي كريم باحترام الأكابر، وتقديرهم، وهو قول الرسول ﷺ: «أمرني جبريل أن أقدم الأكابر»[4].

كما نجد أن الإسلام راعى في أحكامه الضعف، الذي يعيشه كبير السن، ورتب على ذلك أحكاماً خاصة بهم تتصف باليسر والتجاوز، مراعاة لحالتهم الصحية والبدنية، وهذا ما تمتاز به شريعة الإسلام من يسر وتجنب للعسر، يقول الله عز وجل: ﴿.. يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ...﴾ (البقرة:١٨٥)، فنجد في بعض العبادات لهم معاملة وأحكاماً خاصة ومن ذلك: الترخيص لكبير السن في إنابة من يحج عنه لكبر

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب يسلم الصغير على الكبير، حديث رقم ٦٢٣١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إكرام الكبير ويبدأ الكبير بالكلام والسؤال، حديث رقم ٦١٤٢.

(٣) الأدب المفرد، البخاري، حديث رقم ٣٥٧.

(٤) فتح الباري، ١/٤١٠.

سنه وعجزه عن ذلك، فعن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال: «جَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَوِيَ عَلَى الرَّاحِلَةِ، فَهَلْ يَقْضِي عَنْهُ أَنْ أَحُجَّ عَنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ»[1]. فهذه الرخصة خاصة بكبير السن. كما أمر النبي ﷺ الأئمة الذين يصلّون بالناس بالتخفيف في صلاتهم مراعاة لمن خلفهم من الضعفاء وكبار السن. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ مِنْهُمْ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالْكَبِيرَ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ**»[2].

كما رتب الإسلام على هذا التوقير والاحترام جزاءً بمثله، استناداً لقول الله عز وجل: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ (الرحمن: ٦٠)، أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق، ونفع عبيده، إلا أن يحسن خالقه إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير والنعيم والعيش السليم[3]. فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ**

(١) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الحج عمن لا يستطيع الثبوت على الراحلة، حديث رقم ١٨٥٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب إذا صلى لنفسه فليطول ما يشاء، حديث رقم ٧٠٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص٨٣١.

يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّه»[1]، فهذا الحديث يبيِّن أن إحسان الشاب للشيخ يكون سبباً لأن يقيِّض الله له من يكرمه عند كبره.

ولم تقتصر هذه التوجيهات للعناية بالمسنّين على المسلمين منهم فحسب، بل حتى مع الكفار في حالة الحرب، ففي الوقت الذي لم يعرف العالم الحديث آداب الحرب إلا في القرن الماضي، فقد جاء بها الإسلام قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، ولم تظهر معاهدة رسمية حول آداب الحرب إلا في عام (١٢٧٣هـ/١٨٥٦م)، والتي تسمى (تصريح باريس البحري)، ثم توالت الاتفاقات وأبرزها اتفاقات جنيف التي دوّنت عام (١٣٦٩هـ/١٩٤٩م) والخاصة بمعاملة جرحى وأسرى الحرب، وحماية الأشخاص المدنيين، ورغم وجود هذه المعاهدة فإنها لا تطبق إلا في حالة قيام الحرب بين دولتين موقعتين على المعاهدة[2].

أما في الإسلام، فكانت هذه الآداب الحربية تطبق ابتداءً، حتى ولو لم يكن هناك أية اتفاقات أو معاهدات، فها هي سرايا رسول الله ﷺ تنطلق يمنة ويسرة ناشرة الخير والنور، ولقد اشتملت وصاياه ﷺ ووصايا خلفائه من بعده إلى الجيوش على عدد من التوجيهات شملت جوانب عدة، منها: العناية بالشيوخ وكبار السن، والاهتمام بهم، وعدم

---

(١) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في إجلال الكبير، حديث رقم ٢٠٢٢.

(٢) رعاية المسنّين في الإسلام، عبد الله بن ناصر السدحان (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٧هـ) ص ٧٣.

قتلهم، أو التعرض لهم. يروى الطبراني عن سليمان بن بريدة عن أبيه أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشاً أو سرية دعا صاحبهم، فأمره بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: **«اغزوا بسم الله، وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا، وتغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً ولا شيخاً كبيراً»**(١). ويتضح من نص الحديث أن ذلك كان ديدنه ﷺ في كل غزوة أو سرية، ولم تكن محض صدفة أو مقولة يتيمة خرجت من فيّ رسول الله ﷺ فالراوي يقول: «كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشاً أو سرية...»، فاللفظ يدل على تكرار ذلك الفعل.. وروى البيهقي عن خالد بن زيد ﷺ أنه قال: «خرج رسول الله ﷺ مشيعاً لأهل مؤتة حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف ووقفوا حوله، فقال ﷺ: **اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدوّ الله وعدوكم.. ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ضرماً ولا كبيراً فانياً، ولا تقطعن شجرة، ولا تعقرن نخلاً، ولا تهدموا بيتاً**»(٢).

ولم يتوقف الأمر على وصية من رسول الله ﷺ أو حث على عدم قتل الشيوخ فحسب، بل هدَّد من قتل شيخاً أنه لن يسلم من تبعة ذلك الفعل،

---

(١) المعجم الأوسط، الطبراني، تحقيق: محمود الطحان (الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٥هـ) ٢٥٥/٢.

(٢) السنن الكبرى، البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ) ١٥٤/٩.

فقد قال ﷺ: «مَنْ قَتَلَ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا، أَوْ أَحْرَقَ نَخْلا، أَوْ قَطَعَ شَجَرَةً مُثْمِرَةً، أَوْ ذَبَحَ شَاةً لإِهَابِهَا، لَمْ يَرْجِعْ كَفَافًا»[1].

ولا يتنافى هذا مع حديث الرسول ﷺ الذي يرويه أبو داود عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اقْتُلُوا شُيُوخَ الْمُشْرِكِينَ وَاسْتَبْقُوا شَرْخَهُمْ»[2]، والشرخ: الغلمان الذين لم ينبتوا، فقتل الشيخ من المشركين محمول على أنه إذا كان يقدر على القتال ويقاتل ضد المسلمين، أما من كان منهم لا يطيق القتال ولا ينتفع به في رأي فلا يقتل، وعليه يحمل حديث منع القتل وهذا هو مذهب جمهور الفقهاء[3].

ولقد مارس ﷺ توجيهاته نحو كبار السن في حياته العملية، فيُحدث سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أُتي بشراب فشرب منه وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: «أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلاءِ؟ فَقَالَ الْغُلامُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لا أُوثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا، قَالَ: فَتَلَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَدِهِ»[4]. فالرسول ﷺ كان يريد أن يبدأ بكبار السن

---

(١) مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٢٧٢٦.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء، حديث رقم ٢٦٧٠.

(٣) أوجز المسالك إلى موطأ مالك، محمد زكريا الكاندهلوي (مكة المكرمة: المكتبة الإمدادية) ٨/٢٣١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأشربة، باب هل يستأذن الرجل من عن يمينه في الشرب، حديث رقم ٥٦٢٠؛ وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب استحباب إدارة الماء واللبن ونحوهما، حديث رقم ٥٢٩٢؛ واللفظ للبخاري.

ممن هم عن شماله، إلا أن السنة أن يبدأ باليمين، ومن كرم خُلُقه ﷺ أنه استأذن صاحب الحق قبل أن يفعل، وبكل حال فالشاهد هنا، أن المصطفى ﷺ كان يريد أن يوقر الكبير بتقديمه في الشرب قبل غيره من الصغار ممن كانوا في المجلس.

وفي موقف آخر، تقول السيدة عائشة، رضي الله عنها: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَنُّ وَعِنْدَهُ رَجُلانِ فَأُوحِيَ إِلَيْهِ أَنْ أَعْطِ السِّوَاكَ الأَكْبَرَ»[1]. وفي فعله ﷺ عندما أتاه عيينة بن حصن وعنده أبو بكر وعمر، رضي الله عنهم، وهم جلوس جميعاً على الأرض، فيدعوا لعيينة بنمرقة - وسادة - فأجلسه عليها، وقال: «**إذا أتاكم كبير قوم فأكرموه**»[2].

كما أخرج الترمذي عن أنس ﷺ قال: جاء شيخ يريد النبي ﷺ فأبطأ القوم عنه أن يوسعوا له، فقال النبي ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا**»[3]. وذكر بعض العلماء أن مقتضى هذه الصيغة وهي قول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «**ليس منا**» التحريم، ومن العلماء من جعلها كبيرة[4]. وأخرج الإمام أحمد في المسند عن أنس ﷺ أنه قال: «جَاءَ أَبُو بَكْرٍ بِأَبِيهِ، أَبِي قُحَافَةَ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، يَحْمِلُهُ حَتَّى

---

(١) فتح الباري، ٤١٠/١.

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مرجع سابق، ١٩/٧.

(٣) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان، حديث رقم ١٩٢١.

(٤) الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح الحنبلي (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٩هـ) ٤٤٤/١.

وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ: **لَوْ أَقْرَرْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ لأَتَيْنَاهُ مَكْرُمَةً لأَبِي بَكْرٍ**، فَأَسْلَمَ وَلِحْيَتُهُ وَرَأْسُهُ كَالثَّغَامَةِ بَيَاضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **غَيِّرُوهُمَا وَجَنِّبُوهُ السَّوَادَ**»[1].

ولقد أوصى الإسلام بكبار السن، والتواصل معهم بطريقة أخرى غير مباشرة، وتتمثل هذه الطريقة في أمره ﷺ بصلة صديق الوالدين، ففي الحديث أنه ﷺ قال: «**من البر أن تصل صديق أبيك**»[2]، بل عدَّه الرسول ﷺ من أبرّ البرّ، فعن ابن عمر، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ**»[3].

إن رعاية المسنّين قد لا تبدو ظاهرة من هذه الآثار، ولكن بتأمل بعض جوانبها يتضح لنا ذلك، فمما لا شك فيه أن صديق الوالدين في الغالب الأعم سيكون كبيراً في السنّ، فعندما يقوم المسلم بصلة صديق والديه وإكرامه فهو في حقيقة الأمر قام برعاية أحد المسنّين في المجتمع، إلى جانب

---

(١) مسند الإمام أحمد، باقي مسند المكثرين، مسند أنس بن مالك ﷺ، حديث رقم ١٢٦٦٣؛ وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، جزء ١، حديث رقم ٤٩٦.

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي (الرياض: مكتبة الإمام الشافعي، بدون تاريخ) مرجع سابق، ٣٧٩/٢؛ وذكره الألباني في الأحاديث الصحيحة، ج ٥، حديث رقم ٢٣٠٣.

(٣) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما، حديث رقم ٦٥١٥.

بره بوالديه، وهذه إحدى صور البر الرائعة في المجتمع المسلم والتي تساعد أفراد المجتمع على القيام بدمج المسنّ في المجتمع، كما يؤدي ذلك إلى القضاء على العزلة التي قد يمر بها كبير السن، وبهذا التوجيه الكريم استطاع الإسلام أن يخفف من آثار التغيرات الاجتماعية التي يمر بها المسن، وكذلك التغيرات النفسية، لأن بينهما علاقة تأثيرية متبادلة. فحين يزور أفراد المجتمع أصدقاء آبائهم فذلك يعني أن الجيل المتوسط في المجتمع قد ارتبط تلقائياً بجيل كبار السن، وأصبح المسنون جزءاً لا يتجزأ من المجتمع.

وخلاصة هذا المبحث، أنّ هناك العديد من التوجيهات النبوية لاحترام المسن في المجتمع المسلم، وتوقيره، وتقديمه في الأمور العامة والخاصة، وقد مارس ذلك ﷺ في أكثر من موقف يستدعي الأمر ذلك، ومعاملة المسنّين في المجتمع بهذه الطريق الراقية التي كان يفعلها المصطفى ﷺ كفيلة بتحقيق حياة أسرية يحوطها الوفاء من جانب، والرحمة من جانب آخر، وكلاهما في النهاية مقصودة لذاتها في حث الإسلام على التعامل الأخلاقي مع المسنّين في المجتمع المسلم.

الفصل الثالث
أثر الالتزام بالحقوق والواجبات في أمن المجتمع وسعادته

إن التعاملات الأخلاقية، التي سبق ذكرها والتي ينبغي أن يتعامل بها المسلم اقتداءً برسوله ﷺ، وتحقيقاً لمقاصد الشريعة الكبرى في الحياة، سواء كانت هذه التعاملات الأخلاقية موجهة للوالدين، أم لذوي الأرحام، أم للزوجات والأبناء، أو من يعمل في البيت، فكل هذه التعاملات تعمل بشكل مباشر على تأسيس بناء أخلاقي مترابط في النواة الأولى للمجتمع وهي الأسرة.

وفي تماسك الأسرة تحقيق لمكاسب أخرى مترتبة على ذلك الالتزام الأخلاقي بين أفراد الأسرة، فالصغير يوقر الكبير، والكبير يعطف على الصغير، والزوج يحنو على زوجه، والأب يهتم بأمر ولده وخدمه، وهكذا في منظومة تربوية متكاملة يؤسس لها الإسلام من خلال تشريعاته القولية من القرآن والسنة، ومن خلال أوامر النبي ﷺ القولية والترجمة العملية لها، ليصل في النهاية إلى تحقيق صلاح الأسرة ذاتها، وتكوين محاضن تربوية في المجتمع تعمل عملها: الاجتماعي، والتربوي، والنفسي في أفراد المجتمع، صغاراً وكباراً، لكي يخرج لنا كيان مجتمعي يحقق الغاية من وجوده في هذا الكون، وهو تحقيق العبودية لله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦).

لقد حرص الإسلام على تماسك المجتمع، ووحدته، وتماسك أركانه، ذلك أن المجتمعات لا يمكنها الوقوف في وجه المتغيرات بأنواعها المختلفة: الاجتماعية، والثقافية والاقتصادية، والأمنية، إذا لم يكن هناك ثمة وحدة صف، أو ترابط ظاهر وباطن في المجتمع، وتعد الأسرة المرتكز في هذا الترابط وأسه المتين، فلا يمكن تصور الكل وهو متماسك دونما تلاحم في الجزء، ولا يمكن للمجتمع الكلي التماسك، دونما لُحمة في مكونه الرئيس، الأسرة. من هنا نجد التأكيد المبكر في حياة الإنسان على اختيار نواة الأسرة الصالحة، التي تمثل ركنها الثاني وهي الزوجة في قوله ﷺ: «**تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**»[1]. ثُم الحرص على حسن تربية الأبناء، والقيام بحقوقهم كاملة لينشأوا النشأة الإسلامية الصحيحة، حيث يُعدُّ ذلك مقصداً أساساً من مقاصد الشريعة في النكاح والزواج والتي تتمثل في «سد الحاجات الجنسية وصيانة الفروج والعورات وحفظ الأعراض والأنساب، ومنع الفتن والرذائل والمنكرات، وفوق ذلك كله تتمثل هذه المقاصد في تحقيق النسل وإيجاد الولد الصالح.. الذي سيكون النواة الإسلامية للأسرة الصالحة، التي ستشكل القاعدة الضرورية لقيام الأمة الصالحة، التي هي خير أمة أخرجت للناس»[2].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم ٥٠٩٠؛ وصحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم ٣٦٣٥؛ واللفظ للبخاري.

(٢) المقاصد الشرعية: تعريفها – أمثلتها – حجيتها، نور الدين بن مختار الخادمي (الرياض: كنوز اشبيليا للنشر، ١٤٢٤هـ) ص ٥٢.

ولأجل تلك المقاصد العظمى أخذت أحكام الأسرة في الفقه الإسلامي حيزاً واسعاً، شرحاً وتفصيلاً، لذا لا عجب أن نجد من يعتبر أحكام الإسلام في نطاق الأسرة أقرب إلى العبادات منها إلى المعاملات، وذلك بالنظر إلى المفهوم الواسع للعبادة والذي سبقت الإشارة إليه، بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة، وذلك عائد لما يوليه الشرع من أهمية لموضوع الأسرة وترابطها، وديمومتها في أمن وسلام، فضلاً عن أحكام نظامها، ذلك أن «نظام الأسرة في الإسلام إنما هو لبنة في النظام الإسلامي المتشابك المتكامل، فهو وثيق الصلة بالبناء الإسلامي للمجتمع، سواء في مجال العقيدة، أو الشريعة، أو الأخلاق.. وتخضع لحقوق وواجبات عينية وكفائية، ويحكمها ما يحكم المجتمع الإسلامي كله.. ومن هنا فإن تداعي الأسرة من شأنه أن يقوض دعائم المجتمع، بل من شأنه أن يفسد مسار الحضارات»[1].

إن الحقوق والواجبات الأسرية إنما شرعت لصلاح الأسرة ابتداءً، والمجتمع انتهاءً، ولا يتصور صلاحهما دونما نظام أخلاقي يضبط هذه العملية الإصلاحية ويوجهها، ويأتي على رأس هذه الحقوق التعاملات الأخلاقية بين أفراد الأسرة الواحدة، ومن هنا نجد أن الإسلام حرص كل الحرص على أداء الحقوق الواجبة على المسلم، بغض النظر عن تعامل المقابل له، فيبدأ بالدائرة الكبرى، وهي مجال الطاعة لولي الأمر، حيث نجد التوجيه بالطاعة وأداء ما على المسلم

---

(١) توجيهات الإسلام في نطاق الأسرة، عبد الله التركي (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٤هـ) ص٤.

وترك حساب الطرف الآخر إلى الله عز وجل، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه حين تباين الرايات واختلاف الولاءات: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ، وَتَرَوْنَ أَثَرَةً، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا يَصْنَعُ مَنْ أَدْرَكَ ذَاكَ مِنَّا؟ قَالَ: أَدُّوا الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ وَسَلُوا اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ**»[1].

وفي المجال الشخصي أمر ﷺ بالقيام بما هو على المسلم، و ألاّ يكافأ الشر بالشر، قال ﷺ: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»[2]. كما حث الإسلام على أن يوطن المسلم نفسه على الخير دون أن يتأثر بالبيئة حوله، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «**لا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلا تَظْلِمُوا**»[3].

إن الإسلام حين يطالب أفراده القيام بالحقوق التي عليهم إنما يهدف من وراء ذلك المبادأة بالخير من كل طرف ليقابله الطرف الآخر بمثله، أو يدفع به شره على أقل الأحوال، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤). يقول ابن عطية في تفسير هذه الآية:

---

(١) المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود، رضي الله تعالى عنه، حديث رقم ٣٦٤٠؛ وللحديث أصل في صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**سترون بعدي أموراً تنكرونها**»، حديث رقم ٧٠٥٢.

(٢) سنن الترمذي، كتاب البيوع، باب أد الأمانة إلى من ائتمنك، حديث رقم ١٢٦٤.

(٣) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو، رقم ٢٠٠٧.

إنها «جمعت مكارم الأخلاق وأنواع الحلم. والمعنى: ادفع أمورك وما يعرض لك مع الناس ومخالطتك لهم بالفعلة أو بالسيرة التي هي أحسن الفعلات والسير.. أما قوله تعالى عن العدو ﴿ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ فأدخل كاف التشبيه؛ لأن الذي عنده عداوة لا يعود ولياً حميماً، وإنما يَحْسُن ظاهره فيشبه بذلك الولي الحميم»[1]، وهذا مطلب في حد ذاته، وهو إطفاء العداوة بين المسلمين.

إن الإسلام حريص كل الحرص على جمع الكلمة وإظهار وحدة المجتمع المسلم وتماسكه، بل يسعى إلى ذلك بشتى الطرق وبالحث المباشر، ومن ذلك قول المصطفى ﷺ: «**الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ مُخَالِطًا النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنْ الْمُسْلِمِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»[2]. فالإسلام دين اجتماع، ومجتمعي ويكره الانفراد والانعزال، ويحث على التخالط والتحاب، ودلّ أتباعه على الأفعال التي تؤدي إلى التَّحاب، وعدَّها من صميم الإيمان، وإن كانت يسيرة في نظر بعض المسلمين الآن، فمن ذلك قوله ﷺ: «**لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ**»[3]. وهذا أمر يسير ولكن أثره عظيم في منتهاه، فهو يبدأ بإفشاء السلام وينتهي بالمؤمن بدخول الجنة.

إن هذا الترابط في المجتمع، الذي ينشده الإسلام لا يمكن تصوره دون أن يكون هناك ترابط في الأسرة ذاتها، وترابط الأسرة سواء الصغيرة منها،

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص ١٦٥٤.
(٢) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في فضل المخالطة مع الصبر على أذى الناس، حديث رقم ٢٥٠٧؛ وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٥٢٧.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم ١٩٤.

أو الكبيرة في محيط الأقارب عامة، لا يكون إلا بكسب القلوب واستجلاب محبتها، وهذا لا يكون بالأموال، ولكن كما قال الرسول ﷺ: «**إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاس بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَسَعهُمْ مِنْكُمْ بَسْط الْوَجْه وَحُسْن الْخُلُق**»[1]. والأسرة هي المنشأ لهذه الأخلاق، وهي الحاضنة لها، وفيها يكون تعلُّمها ابتداءً ثُم العمل معها، وفيها، ومن خلالها. وقد تكون تعوُّداً في بداية الأمر ولكن ما تلبث إن تكون تعبُّداً لله عز وجل، فالأسرة تقوم بدور مهم في عملية التنشئة الاجتماعية، ذلك كونها المحيط الأول الذي ينشأ فيه الطفل ويقضي فيه معظم وقته إن لم يكن كله في سنواته الأولى، «وقد أجمعت الخبرات الإنسانية ودلت تجارب العلماء على ما للتربية في الأسرة من أثر عميق وخطير يتضاءل دونه أثر أي شيء آخر في تحديد الشخصيات وتشكيلها.. وتتركز خطورتها في أن ما يغرس في ثنايا السنوات الأولى من حياة الطفل من خلال الأسرة من عادات واتجاهات وعواطف يصعب تغييره أو استئصاله، ومن ذلك القيم الخُلُقية»[2].

إنَّ هذه القيم الخُلُقية، التي يتعلمها الطفل في الأسرة والتي نحن بصدد الحديث عنها، حيث يتعلم الطفل من محيطه الأسري تلك الأخلاق الحميدة، أو يتعلم ضدها، فالأمر لا يتوقف على مجرد الممارسة من الأبوين فحسب،

---

(١) إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، أحمد بن أبي بكر البوصيري، تحقيق أبي عبد الرحمن عادل بن سعد والسيد بن محمود بن إسماعيل (الرياض: مكتبة الرشد، ١٤١٩هـ) ٧/٣١٠، حديث رقم ٦٩٠٠.

(٢) الأسرة والضبط الاجتماعي، محمد بن معجب الحامد ونايف بن هشال الرومي (الرياض: بدون ناشر، ١٤٢٢هـ) ص ٥٨.

بل يستتبع ذلك، تعلم الأبناء أنفسهم لتلك الممارسات. وحسبك في ذلك حديث المصطفى ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[1]. ومن هنا فإنه كلما كانت الأسرة متمسكة بدينها، ومن ذلك التعامل الأخلاقي في محيط الأسرة، انعكس ذلك على تربية الأطفال، ويحكمون الدين ومبادئه وأحكامه في تصرفاتهم وممارستهم المستقبلية، فسلوك المستقبل ما هو إلا نتاج تربية الحاضر، وإن خيراً فخير وإن شراً فشر، والله المستعان.

إنَّ مما لاشك فيه أنَّ التعامل الأخلاقي من قبل المسلم تجاه أفراد المجتمع سيؤدي بالضرورة إلى انتشار الاحترام المتبادل بين أفراد المجتمع، والاحترام المتبادل بين المسلمين خُلق متولد من التعامل الأخلاقي، وهو صورة من صور التراحم، وجانب من جوانبه، والتراحم من الخلق، الذي حث عليها الإسلام في أكثر من موطن، بل وامتدح القرآن الكريم المجتمع المسلم الأول بأنه متراحم فيما بينه، فقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح:٢٩). فأثنى عليهم الله عز وجل بكونهم رحماء بينهم مقابل الشدة على الكفار. كما أوصى الله عز وجل المسلمين بالتواصي

---

(١) صحيح مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، حديث رقم ٦٨٠٠.

بالتراحم، قال عز من قائل: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد:١٧). أي «أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان والثبات عليه.. وأن يكونوا متراحمين متعاطفين. أو بما يؤدي إلى رحمة الله»[١]. ولاشك أن مما يؤدي إلى رحمة الله الخُلُق الحسن وانتشاره بين المسلمين، وشيوعه بينهم.

إن الإسلام يريد أن يصل بالمجتمع لكي يكون كياناً واحداً، يؤلمه كله ما يؤلم بعضه، فيصف الرسول ﷺ المجتمع المسلم بقوله: «**تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[٢]. ويقول ﷺ: «**الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ، إِنْ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ، وَإِنْ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ**»[٣]. والوصف بليغ في هذا التشبيه من المصطفى ﷺ، حيث يتأثر الجسم بكامله إذا اشتكى عضو من أعضائه، فكأن الأمر دعوة إلى الفرد لكي يصلح نفسه ومن حوله من أفراد أسرته حتى لا يؤثر على سائر المجتمع، وكذلك الأمر ينصرف إلى المجتمع أن يأخذ بيد الفرد أو الأسرة لتصلح لكي لا تؤثر على نفسها وعلى المجتمع كذلك، ومن هنا كانت شعيرة الأمر بالمعروف والنهي

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل المعروف بتفسير الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض (الرياض: مكتبة العبيكان ، ١٤١٨هـ) ٣٧٩/٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم ٦٠١١.

(٣) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، رقم ٦٥٨٩.

عن المنكر لها مكانتها في الإسلام، قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:٧١)، وقال المصطفى ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[١].

إن مكارم الأخلاق من الضرورات الاجتماعية، التي لا يمكن لمجتمع من المجتمعات أن يستغني عنها بحال من الأحوال، ذلك أنّ أفراد المجتمع لا يمكن لهم العيش دون وجود حد أدنى من التفاهم والتعاون القائم على الأخلاق، والتعامل الأخلاقي فيما بينهم، «ولقد دلت التجارب الإنسانية والأحداث التاريخية على أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقائها في سلم الأخلاق الفاضلة، ومتناسب معه، وأن انهيار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها ومتناسب معها، فبين القوى المعنوية والأخلاق تناسب طردي دائماً، صاعدين وهابطين»[٢].

ومن هنا لا عجب أن نجد الحرص في التشريع الإسلامي على مكارم الأخلاق، والحث عليها، وعلى التلبس بها، وجعلها الأساس في تعامل المسلمين فيما بينهم، وتأكيده الضمني على أنها بناء الأمة وأس حضارتها، وحافظة مجتمعها من الانهيار الداخلي، الذي قد يكون هو المقدمة للانهيار الخارجي.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم ٢١٦٩.
(٢) الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، مرجع سابق، ص٣٤.

إن مما تجدر الإشارة إليه، والتأكيد عليه مراراً أن أزمة الأمة الإسلامية في وقتنا الحاضر هي أزمة أخلاق، بدرجة كبيرة، فكم يلحظ الناس التفاوت بين تعاليم الإسلام، التي يأمر بـــها الإسلام قولاً وفعلاً، في المجال الأخلاقي، في حين يجد أن الأثر التنفيذي لها على أرض الواقع قد يشوبه الكـــثير مـــن التقاعس أو الضعف، ومن المجزوم به أنَّ الناس تنظر إلى السلوك الخُلُقي قبل الاستماع إلى النصيحـــة القولية، وأنَّ آذانهم - في الغالب - صم حتى يروا ما يسرهم من خلق فاضل، وهذا يستدعي التواصي على تحقيق تلك الفضائل الأخـــلاقية، وجعلها وسيلة للدعـــوة إلى الإســـلام، فكـــم مـــن أفـــراد وشعوب انضووا تحت لواء هذا الدين من خلال موقف أخلاقي لمسلم مـــن المسلمين، سواء في مظهر من مظـــاهر البر بالوالدين، أو تقـــدير لكـــبير في السن، أو رعاية لحق مخـــدوم، أو غيرها من الممارسات الأخلاقية الـــسوية، التي تألفها الفطرة السليمـــة، وتحن إليهـــا النفس البشرية بغض النظر عـــن الديانة التي تعتنقها.

فكيف إذا تصاحب مع ذلك أجر عميم في الدنيا والآخرة، ورضى من الخلاق الكريم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وليت الأمر يتوقـــف عنـــد هذا، بل الخوف أن الذي يقول خيراً ثم يفعل نقيضه من الشر أن يكون ممن عناهم الله عز وجل في قولـــه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف:٢-٣). أو في قول المصطفى ﷺ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى

فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلانُ، مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»[1].

إنَّ المجتمع الذي تنتشر في الأخلاق الفاضلة، والسجايا الكريمة قلما نجد فيه الانحرافات الأخلاقية، ذلك أنَّ أفراده يرتدعون عن أمور كثير من المقبوحات السلوكية، بسبب الالتزام الأخلاقي فيما بينهم، ويتحلون بمحاسن الأخلاق انطلاقاً من وازع ديني ذاتي، وهذا ما تتصف به الأخلاق الإسلامية، حيث إنها تخرج من المسلم تديناً، وعبادة إلى الله عز وجل، في السر والعلن، مع وجود الرقيب، وبدونه.

وهذا بدوره يؤدي إلى تحقيق الاستقرار الاجتماعي وعدم شيوع روح التذمر في المجتمع، وذلك لشعور أفراده بقيمهم الذاتية والمجتمعية نتيجة لذلك التعامل الأخلاقي الأصيل، كما يؤدي ذلك التعامل الأخلاقي الراقي بين أفراد المجتمع إلى شيوع روح التراحم والتواد بين أفراد المجتمع وحمايته من الأمراض الاجتماعية، التي تنشأ عادة في المجتمعات التي تسود فيها روح الأنانية المادية والتناحر بسبب سوء التعامل بين أفراده.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، حديث رقم ٣٢٦٧؛ وصحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله، حديث رقم ٧٤٨٣؛ واللفظ للبخاري.

كما يعمل حسن الخُلُق بشكل عام على تعزيز روح الانتماء المجتمعي بين أفراد المجتمع وشعورهم بأنهم جزء من جسد واحد تحقيقاً لحديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه: «**تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ، وَتَوَادِّهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»(١).

وهذا الشعور بالانتماء يشمل الطرفين، المتعامل بالأخلاق الحميدة، ومن يتم التعامل معه بتلك الأخلاق الحميدة، فالأول استشعر دوره المناط به في المجتمع وقام بدوره بالتحلي بالأخلاق الحسنة، والثاني يستشعر بعين التقدير مدى حاجته للانتماء لجسد المجتمع الواحد من خلال الالتزام بالخلق الحسن، لتحقيق الترابط المجتمعي المنشود في الأمة المسلمة.

والله الموفق.

---

(١) سبق تخريجه.

الفهرس

وكـــلاء التـــوزيـــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطـــــر	دار الثقافـــــــــة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٤٦٢٢١٨٢ ٤٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس:٤٤٤٣٦٨٠٠-بجوار سوق الجبر
البحـــرين	مكتبـــــــــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويـــت	مكتبة دار المنـــار الإســـلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبـــة علـــوم القـــرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب:١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب:٣٣٧١ –عمان١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
الـــيمن	مجموعـــة الجيـــل الجديـــد	٧٨٠٤٠-٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨ -٧٥٨١١	ص.ب: ٥٤٤- صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
الـــسودان	دار الريـــان للثقافـــة والنـــشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦- الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مـــــصر	دار السلام للطباعـــة والنـــشر والتوزيـــــع والترجمـــــة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغـــــرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦- الرباط
الجزائـــــر	دار الوعي للنـــشر والتوزيـــع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة –الجزائر
إنكلتـــــرا	دار الرعايـــــة الإســـــلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة – الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

موقعنا على الإنترنت:

www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E.Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠) فلس
الإمارات	(٥) دراهم
البحرين	(٥٠٠) فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	(٥) ريالات
السودان	(٥٠) قرشاً
عمان	(٥٠٠) بيسة
قطر	(٥) ريالات
الكويت	(٥٠٠) فلس
مصر	(٦) جنيهات
المغرب	(١٠) دراهم
الجزائر	(١٢٠) ديناراً
اليمن	(٤٠) ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

جائزة الشيخ

علي بن عبد الله آل ثاني

للعلوم الشرعية والفكر الإسلامي

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي والارتقاء الثقافي الفكري، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء،

تطرح لعامها الحادي عشر موضوع

الحكم الراشد

إطعامٌ من جوع .. وأمانٌ من خوف

قيمة الجائزة (٢٠٠) ألف ريال قطري

آخر موعد لاستلام البحوث حزيران (يونيو) ٢٠١٥م

- **مدخل:**

لمحة تاريخية: نشأة نظام الحكم وتطور أشكاله؛ أهمية الحكم لإدارة المجتمع وتوفير الأمن وفض المنازعات؛ تعريف عام بأنظمة الحكم..

- **المحاور:**

- **في تحرير بعض المفاهيم والمصطلحات:** الحكم من مقومات الإسلام؛ الحاكمية: بين شرع الله ودور الإنسان في تنزيلها على الواقع؛ الأمة؛ الدولة؛ الحكومة؛ الولاية؛ الخلافة؛ الإمامة؛ تطبيق الشريعة وعلاقة التكليف بالاستطاعة؛ دار الإسلام؛ دار الكفر؛ دار العهد.
- **مقومات الحكم الراشد ومسؤولياته:** التزام الشورى في اختيار الحاكم؛ الشورى في إدارة شؤون الحكم؛ تحقيق مقاصد الشريعة حقوق الإنسان (العدل؛ الحرية؛ المساواة...)؛ شرعية المحاسبة والمسؤولية: مسؤولية الحاكم؛ مسؤولية المواطن؛ مسؤولية الأمة؛ مؤهلات أهل الحل والعقد.
- **غياب الفقه السياسي:** أسباب توقف الاجتهاد السياسي؛ الخروج على الحاكم، بين المصالح والمفاسد؛ نظام الحكم بين القيم الضابطة لمسيرة الحكم في الكتاب والسنة والبرامج الاجتهادية.
- **الاجتهادات التراثية ودورها في إعادة البناء:** أبعاد التجربة التاريخية؛ وعطاؤها في الحاضر والمستقبل؛ تجديد وسائل النظر، والاجتهاد لإيجاد أوعية شرعية لمسيرة الأمة والدولة والمجتمع.؛ استئناف الاجتهاد السياسي في ضوء فقه النص وفهم الواقع وتحدياته.
- **الحكم ومعيار الشرعية:** الحكم الراشد: وعلاقة الأمن بالاستقرار والتنمية؛ الشراكة السياسية؛ المواطنة؛ المعارضة؛ التعددية؛ تشكيل الأحزاب؛ غير المسلمين....؛ منظمات المجتمع المدني؛ المنظمات الدولية؛ المعاهدات الدولية؛ مقارنات؛ ومقاربات معاصرة؛ وتميز مقاصد الحكم في الإسلام؛ بناء تصور سياسي للتعامل مع التحديات واستشراف المستقبل.

• شروط الجائزة:

١- أن يكون البحث قد أُعدّ خصيصًا للجائزة.

٢- أن تتوفر في البحث شروط البحث العلمي.

٣- أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.

٤- يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ مطبوعة، ومخزنة على قرص (CD) مرفق بالبحث، إضافة إلى ملخص باللغة الإنجليزية، إن أمكن.

٥- لا يقل حجم البحث عن (٢٠٠) صفحة، ولا يزيد على (٣٠٠) حوالي: (٦٠.٠٠٠) كلمة بخط (Traditional Arabic) بحجم (16).

٦- تحجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث للمستوى المطلوب.

٧- يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

٨ - تسحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث مخالف لبعض شروط الجائزة.

٩- لا تُمنح الجائزة للفائز مرة أُخرى إلا بعد مرور خمس سنوات.

١٠- التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين.

١١- على الباحث أن يرفق نبذة عن سيرته العلمية، ونسخة مصورة عن جواز سفره.

*** ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:**

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

لمزيد من الاستفسار:

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠(+٩٧٤)- فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

البريد الإلكتروني: m_dirasat@islam.gov.qa

موقعنا على الإنترنت: www.Islam.gov.qa